

دار الصباغ للنشر

تقدم

Rewity.com
Dalyai



Bonjour Tristesse

مرحباً أيتها الأحرار

ترجمة وصفى آل وصفى

تأليف فرانسواز بايهان

القصة التي شحنت فرانسواز بايهان للتخاود

دار الصبّاح للنشر
تقديم

Bonjour Tristesse

مرحبًا أيتها الأحرزان

تأليف فرانسواز ساجان
ترجمة وصفي آل وصفي

فرانسواز ساجان

● فرانسواز ساجان

- أو كيكي ، كما يدعوها الاقربون ..
- ولدت في ٢١ يونيو سنة ١٩٣٥ ، من أسرة برجوازية ، في القمة
- من الطبقة البرجوازية .. أسرة « الكواريز »
- لها أخت ، ولها أخ لا يزال أفضل صديق لها ..
- أبوها مهندس .. وأمها شابة جميلة ..
- بدأت دراستها في المؤسسة التعليمية بالنائرة السادسة عشر ..
- وفي الثالثة عشرة أدخلها والداها دير العسايفر ، بيد أن الاخوات
- الراهبات لم يعجبهن ميلها الى الشاعر الكبير « بريفيير » ولم
- يرضيهن .. « افتقارها الى الروحانية .. » ، ففادرت الدير ..
- والتحقّت بمؤسسة « هانمر » لمواصلة تعليمها ، الا أنها رسبت
- في امتحان البكالوريا ! وفي هذه المرة أدخلها والداها قسما داخليا
- .. فنجحت بتقدير .. « جيد جدا » !
- ثم ذهبت الى « السوربون » ، ولكنها فشلت تماما
- وفي الاجازة ظلت وحيدة مع أبيها في باريس . وراحت تكتب
- وتكتب .. وكانت شخصية آن تطاردها ..
- وفي بضعة أسابيع أتمت قصتها الاولى .. « مرحبا أيتها الاحزان »
- وعرف عالم الادب .. فرانسواز ساجان ..
- وطبع من القصة أول مرة ٣٠٠٠ نسخة ..
- ثم ارتفع المطبوع منها الى ١٢٠.٠٠٠ نسخة .
- ثم ارتفع مرة ثانية الى ٥٦٠.٠٠٠ نسخة
- ثم ترجمت الى عشرات اللغات ..
- ثم تلقفتها الشاشة .. ولربما شاهدها القارئ خلال الاسابيع
- القادمة .

الترجم

وداعاً أيتها الأحزان
مرحباً أيتها الأحزان
إنك محفورة في خطوط السقف
مسطورة في العيون التي أحبها
أنت لست البؤس تماماً
لأن أتعس الشفاء تكشف عنك
بابتسامــة..

مرحباً أيتها الأحزان
غرام الأجساد اللطيفة
بأس الغــرام
الذي تنبثق منه الرقة
كوحش بلا جسد . .
سمــات يائسة . .
أيتها الأحزان . .
جميلة الوجــه

إنني أتردد في أن أطلق الاسم الجميل الجليل .. «الأحزان» ،
 على هذا الإحساس الغامض الذي يتملكني ويسكب في روحي
 ضيقاً .. وعذوبة . ذلك أنه إحساس أناني طاع ، أكاد معه
 أحس خجلاً .. بينما بدت الأحزان لي دائماً موضع احترام وتقدير .
 بيد أنني لم أعرف الأحزان ذاتها ، بل عرفت الضيق والأسف ،
 وفي النادر جداً .. تأنيب الضمير . أما اليوم فيطوينني شيء ما ،
 كالحرير ، ناعم ومثير .. يطوينني ويفصلني عن الآخرين .

ولقد كنت ، ذلك الصيف ، في السابعة عشرة .. جد سعيدة ،
 وكان الآخرون .. أبي وعشيقته إلزا . وأبادر إلى إيضاح ذلك
 الوضع الذي ربما بدا مزيفاً ، فأقرر أنه لم يكن في إمكانني ، عندما
 تركت القسم الداخلي من المدرسة منذ عامين ، ألا أدرك أن أبي
 الذي فقد زوجته منذ خمسة عشر عاماً وبلغ الأربعين شاباً كامل
 الحيوية موفور الامكانيات .. يعيش مع امرأة ! ولئن كنت
 لم أدرك بنفس السرعة أنه يستبدل بها غيرها كل ستة أشهر ،
 ألا أن فتنته ، والحياة الجديدة السهلة ، واستعدادي الخاص ، كل
 ذلك .. سرعان ما قادني إلى التسليم بتلك الحقيقة أيضاً .

كان أبي خفيف الظل ، قديراً في عمله ، شديد الفضول ، سريع
 اللال .. موضع إعجاب النساء ! وكان طيباً كريماً مرحاً ، عظيم

المودة لي ، وما كنت لآمل في صديق خير منه أو أكثر تسليية ، فكان من السهل أن يشغفني ويطوف به حنانى . وبلغ من رفته ، عندما لاحت تباشير ذلك الصيف ، أن جاء يسألنى ما إذا كانت صحبة إلزا - عشيقته الحالية - خلال الأجازة ، لاتضايقنى . ولم أكن أملك إلا أن أشجعه ، ذلك أننى كنت أعرف حاجته إلى النساء ، كما وأن إلزا لم تكن تتعبنا . لم تكن سوى عاهرة غير ذات خطر ، واحدة ممن يرتدن استديوهات وحانات الشانزلييه . شابة طويلة حمراء الشعر ، رقيقة ، على قدر كبير من البساطة ، وبلا مطالب خطيرة . ثم أن سعادتنا بالرحيل - أبى وأنا - كانت أقوى من أن تسمح لأية عقبة باعترضه . كان قد استأجر (فيلا) جميلة كبيرة بيضاء ، تقوم وحيدة فوق ربوة تشرف على البحر ، وتحجبها عن الطريق غابة من الصنوبر . ينحدر من تحتها طريق ضيق ، يتهى أمام خليج ذهبي صغير تترقرق المياه بين صخوره الحمراء . وكنا قد بدأنا نحلم بها منذ لفحات يونيو الأولى .

* * *

كانت أيام الأجازة الأولى رائعة ، فقد رحنا نمضي الساعات على الشاطيء ، تسحقنا الشمس بحرارتها وتكسبنا مع الوقت لونا ذهبيا وصحيا ، باستثناء إلزا التى راحت بشرتها تلهب وتسلخ في ألم فظيع . كان أبى يجرى بساقيه حركات معقدة ليقضى على استكراش ولید ، لا يتفق وما لديه من استعدادات « دون جوانية » . أما أنا فكنت أنطلق مع الفجر إلى المياه الباردة

الشفافة حيث أغوص وأرهق نفسى بحركات غير منتظمة ، لأغسل من كل ظلال وكل غبار باريس . أو أتمدد فوق الرمال وأملأ منها يدي ثم أتركها تنساب بين أصابعى عموداً أصفر ناعماً ، وأنا أقول لنفسي إنها تهرب كالزمن ، وأن فكرة الهرب هذه فكرة سهلة ، وأنه من الممتع أن تكون لنا أفكار سهلة .

كان ذلك هو الصيف ..

وفي اليوم السادس رأيت سيريل للمرة الأولى . إنقلب به قارب شراعى صغير كان يقوده بجوار الشاطيء ، أمام الخليج ، فأمرعت أعاونه على استرجاع حاجياته . وفي غمار ضحكاتنا عرفت أنه يدعى سيريل وأنه طالب حقوق يقضي الأجازة مع أمه في (فيلا) مجاورة . وأعجبني وجهه اللاتينى المشرق بشاشة ، بسمرته الشديدة وتلك اللمسات الخفيفة من اتران ونحوه . مع أننى كنت أحرص على تجنب طلبة الجامعة القساة .. للشغولين بأنفسهم ، وبشبابهم خاصة ، واجدين فيه موضوع مأساة أو سببا للضيق . لم أكن أحب الشبان ، بل كنت أفضل عليهم كثيراً أصدقاء أبى من الرجال ذوى الأربعين عاما ، الذين كانوا يحدثوننى في لطف وحنان ويذيقوننى رقة الأب وعدوبة العشيق . إلا أن سيريل أعجبني ، فقد كان طويل القامة .. أراه أحيانا على جمال يوحى بالثقة . وكنت دون أن أشارك أبى كرهه للدمامة - الأمر الذى كان يجعلنا نعاشر قوماً أغبياء أغلب الأحيان أحسن - أمام العاطلين من كل جاذبية جسدية نوعاً من الضيق والشرود . كان رضاهم بعدم الاعجاب يبدو لى عاهة قبيحة .. إذ علام بحثنا إن لم

يكن عن الاعجاب ؟ ! وإن كنت لا أعرف ، حتى اليوم ، ما إذا كان ذلك الميل للغزو يخفى وراءه فيضاً من الحيوية ، ورغبة في السيطرة تصدر عن حاجتنا الخفية ، غير المعترف بها ، إلى الاطمئنان على النفس .

وعرض سيريل وهو يتركني أن يعلمني الملاحظة الشراعية ، فعدت للعشاء وقد سيطرت على تلك الفكرة إلى حد أنني لم أشارك في الحديث إلا قليلاً ، بل وكدت ألا ألحظ عصبية أبي .

وعند ما استلقينا بعد العشاء في مقاعدنا الممدودة في (التراس) ككل مساء ، رحت أرقب النجوم يداعبني أمل مبهم في أن تكون قد بكرت فتشرع في تخطيط قبة السماء .. هابطة . ولكننا لم نكن قد تخطيطنا أوائل يوليو بعد ، فلم تتحرك . وبين حصي (التراس) راح الصرار يسقسق ، ولا شك أن ألوقا منه نشوانة بضوء القمر والحرارة كانت هناك ، حتى يمكن أن ينطلق صراخها العجيب ليالي برمها . لقد قيل لي إن هذه السقسقة لا تكلفه سوى دحك جناحيه الواحد بالآخر ، لكنني كنت أفضل الاعتقاد أنه غناء غريزي ينبعث من الحلقوم ، كذاك الذي تطلقه القطط في مواسمها !

كان السلام يشملنا ، لا يشوبه سوى حزماني دغدغات النوم الناعمة ، بفعل ذرات من رمال تسربت إلى ما بين جلدي وقيصري . وفجأة تنحنج أبي ثم اعتدل في مقعده وهو يقول :

- لدى من أبشر كما بقدومه .

فأغلقت عيني في يأس . لقد كنا في غاية الهدوء ، وما كان ذلك ليدوم ! وصرخت إلز المتعطشة دائماً إلى مباهج المجتمع :

- من ؟ قل سريعاً .

فأجابها وهو ينظر إلى :

- آن لارسن .

ونظرت إليه وقد بلغت دهشتي حداً عجزت معه عن مداراتها ، فاستأنف قائلاً :

- كنت قد قلت لها أن تأتي إذا ما سئمت بمجموعاتها وهامها .. هامي تأتي .

لم أكن أتوقع ذلك أبداً ، فقد كانت آن لارسن صديقة قديمة لأبي المسكينة ، ولم يكن لها بأبي غير علاقات نادرة . ومع ذلك فقد أرسلني إليها لما لم يعرف ما يصنع بي غداة تركي القسم الداخلي منذ عامين . وفي أقل من أسبوعين كانت قد ألبستني في أحسن ذوق ودفعتنني إلى الحياة . وحملت لها من أجل ذلك إعجاباً عاطفياً حولته في مهارة إلى شاب ممن بلوذون بها ، فأصبحت أدين لها بأناقتي وأولي غرامياتي .. وحفظت لها الكثير من العرفان .

كانت آن امرأة مرغوباً فيها ، ينبض وجهها بالكبرياء وينطق بعدم الاكتراث ، الأمر الوحيد الذي كان يمكن أن يؤخذ عليها . كانت محبوبة وبعيدة المنال ، كل ما فيها بعكس إرادة ثابتة وهدوءاً قليلاً طالما أخجلاني . وعلى الرغم من كونها مطلقة وحررة .. فما كان يعرف لها عشيق ! ولم يكن لنا نفس الأصدقاء ، فقد كانت تعاشر قوماً رفاقاً ، أذكياً محترمين ، على حين كان أصحابنا من الظمائي ذوي الصخب ، الذين لم يكن أبي يتطلب فيهم غير الجمال أو الطرافة . وأغلب الظن أنها كانت تكررنا - أبي وأنا - قليلاً ، لانغماسنا في اللهو واهتمامنا بالتوافه ،

فقد كانت تكره كل مغالاة أو إفراط . ولم يكن يجمعنا سوى
سهرات العمل - إذ كانت تشتغل بتصميم الأزياء ، وكان أبي يعمل
في الدعاية - وذكريات أمي ، وجهودي . . . فقد كنت أعجب بها
كثيراً وإن كانت تخجلني . وهكذا كان قدومها المفاجئ . هذا
يبدو غير ملائم ، إذا لم نغفل وجود إلزا وآراء آن في التعليم .
وأخيراً صعدت إلزا لتنام ، بعد أن ناقشت مركز آن في
المجتمع خلال سيل من الأسئلة . وبقيت وحدي مع أبي ، ففمت
أفترش الدرج عند قدميه . وما أن فعلت حتى انحنى ووضع يديه
الاثنتين فوق كتفي وهو يقول :
- حبيبتي ، لم أنت ضامرة هكذا ؟ إنك تبدين كقطعة
مقو حشة . . . لقد تمنيت دائماً أن تكون لي ابنة جميلة شقراء . .
أكثر امتلاء . . . ذات عينيْن ودعيتين . . . و . . .
ولكنني قاطعتني :

- ليست هذه هي المشكلة . لماذا دعوت آن ؟ ولماذا قبلت دعوتك ؟
- ربما أترى أبالك العجوز ، من بدري . . .
- لست بالرجل الذي تهتم به آن . إنها حادة الذكاء شديدة
الاحترام لنفسها . وإلزا . . . هل فكرت في إلزا ؟ هل تتصور
المناقشات بينها وبين آن ؟ أنا لا أستطيع !
فاعترف :

- لم أفكر في ذلك . إنه لمفزع حقاً ! سبسيل أيتها الحبيبة . .
لو نعود إلى باريس . . .

كان يضحك على مهل وهو يدعك عنقي . واستدرت لأنطلق
إلى عينيهِ الراقيتين وسط التجاعيد الدقيقة التي تحدد جوانبهما ،

وفه المرتفع قليلاً . كان يبدو كاله الحقول * ، فجعلت أشاركه
الضحك ، كعادتي كلما ألقى بنفسه بين أحضان المشاكل .
وهذا أخيراً ، ليتساءل في نبرات حنونة عميقة جعلتني أدرك أنه لم
يكن سعيداً :

- ياشر يكتي العجوز ، ماذا تراني كنت صانعا دونك ؟

وفي أواخر الليل رحنا نتحدث عن الحب ، ومشاكله التي
كان يراها أوهاماً . لم يكن ليترف أبداً بمبادئ الوفاء والجلال
والارتباط ، فجعل يشرح لي أنها مبادئ تصفية وغير مجدية .
وكان مثل هذا القول حرياً أن يصدمني لو كان المتحدث سواء ،
لكنني كنت أعرف أن كلماته تلك لم تكن لتفتني عاطفتي الحنان
والإخلاص ، اللتين كانتا تتداعيان إليه في يسر وسهولة . . . طالما
رغب فيهما ، واللتين كان يعرفهما دائماً بصفة وقتية ! وكان
ذلك التصوير يفتنني : غراميات سريعة ، عنيفة ، وعابرة . . . لم أكن قد
بلغت السن التي يفتنني فيها الوفاء ، ولم أكن أعرف سوى القليل من
أمور الحب : مقابلات وقبلات . . . وملل !

* عند قدماء الرومان . . . كان يرمونه بحسد كثيف الشعر ، ورأس ذات قرون ،
وأقدام ماعز .

لم تكن آن لتصل قبل أسبوع ، فرحت أستغل الأيام الأخيرة من الأجازة الحقيقية . حقيقة أننا كنا قد استأجرنا (الفيلا) لمدة شهرين ، غير أنني كنت أعرف أن الراحة الكاملة لن تعود متيسرة بمجرد وصولها . كانت ترسم للأشياء حدوداً وتعطي الكلمات معاني ، كنا نقضل - أبي وأنا - أن نتغافل عنها . وتضع للذوق السليم والرقعة مبادئا ، ليس من السهل تجاهلها في انطواءاتها الفجائية ، وسكتاتها الجريئة ، وتعبيراتها . وكان ذلك مثيراً ومتعباً في الوقت ذاته ، بل ومهيناً .. فلقد كنت أحس أنها على صواب .

وفي اليوم المحدد لوصولها تقرر أن يذهب أبي وإلزا وحدها لانتظارها في محطة فرجس ، فقد امتنعت في إصرار عن الاشتراك في تلك البعثة . وجمع أبي - في بأسه - كل مافي الحديقة من زهور الجاليول ، ليقدّمها إليها ، باقة ، عند هبوطها من القطار . ولم أتدخل في الأمر بغير نصيحة واحدة : ألا يترك إلزا تحمل الباقة ! وبعد رحيلهما بثلاث ساعات هبطت إلى الشاطئ . وكانت الحرارة شديدة فاستلقيت فوق الرمال . ولكن قبل أن أستسلم للنوم تماماً نهني نداء سيريل ، ففتحت عيني على سماء بيضاء مشبعة بالحرارة . غير أنني لم أجبه فما كنت أريد أن أكلم أحداً .. حتى هوا كنت مسمرة إلى الأرض بكل ثقل ذلك الصيف ، وقد

تراخي ذراعاي وجف حلقي . وتساءل سيريل وقد وقف فوق رأسي :

- أمية أنت ؟ إنك تبدين من بعيد كحطام مهجور ..

فابتسمت . وانحدر إلى جوارى فلمست يده ، وهو يجلس ، كنتفي . وانتفض قلبي يدق في أعماقي : كانت مناوراتي البحرية الرائعة خلال الأسبوع الأخير قد ألفت بنا مراراً في أعماق المياه متعانقين ، دون أن يسبب لي ذلك أدنى اضطراب ، غير أن حرارة ذلك اليوم ، وتلك الحركة غير المقصودة ، كانتا كافيتين لأن يتمزق في رفق شيء ما بداخلي . وأدّرت رأسي ورأيت يراقبني ، فجعلت أتفحصه : كان مترناً ، فاضلاً .. ربما أكثر مما ينبغي في مثل عمره ، فكانت حالتنا - العائلة الثلاثية العجيبة - تصدمه . ولقد كان أكثر طيبة أو أشد خجلاً من أن يصارحني بذلك ، غير أنني كنت أحسه في تلك النظرات الحادة الملتوية التي كان يرمي بها أبي . ولقد كان يتمني لو تكون تلك الحال سبباً في عذابي ، ولكنها لم تكن كذلك . وفي تلك اللحظة بالذات ، لم يكن يعذبني سوى نظرتي ، وحديث قلبي العنيف . وانحنى فوقى فاستعدت مشاعر الأيام الأخيرة من ذلك الأسبوع : ثقّتي فيه وهدوئي إلى جواره . وأسفت لاقتراب ذلك الفم العريض بشفتيه الغليظتين بعض الشيء .. وهمست :

- سيريل ، كم كنا سعداء .

وقبلني في رفق فتطلعت إلى السماء ، ثم أغمضت عيني فلم أعد أرى شيئاً سوى أضواء حمراء تنفجر تحت جفني المطبقين . واستغرقت حرارة

القبيلات الأولى ودوارها ، وحلاوتها .. والتنهدات .. دقائق طويلة ، ثم انتفضنا فجأة ، وانفصلنا كلصين ، على دوى نغير . وتركته وعدت صعداً إلى (الفيلا) ، وأنا أعجب لتلك العودة الفجائية . ما كان قطار آن ليكون قد وصل بعد ، ومع ذلك فقد لقيتها في (التراس) بعد أن هبطت من عربتها . وقالت إذ رأتني :
- ها هو منزل الحسنة النائمة ! كم لوحتك الشمس ياسيسيل ؟
من دواعي سروري أن أراك .

فأجبتها :

- وأنا أيضاً ، ولكن .. هل أتيت من باريس ؟
- لقد فضلت المجيء بالعربة ، غير أنني تحطمت تماماً .
وقدتها إلى غرفتها ، وفتحت النافذة على أمل أن أدرك قارب سيريل ، لكنه كان قد اختفى .. وعند ما استدرت نحوها لاحظت ظلالاً خفيفة حول عينيها . وكانت قد جلست فوق الفراش ، ومضت لحظات قبل أن تتنهد قائلة :
- هذه (الفيلا) رائعة . أين رب البيت ؟
- ذهب مع إلزا يبحثان عنك في المحطة .
ونظرت إليها بعد أن رفعت حقيبتها فوق أحد المقاعد ، فصدمني وجهها الذي كان قد امتقع فجأة ، وفيها الذي راح يرتعش وهي تتسأل :

- إلزا ما كنيرج ؟ هل أحضر إلزا ما كنيرج إلى هنا ؟
ولم أعرف ماذا أقول ، فرحت أرقبها دهشة مذهولة . كان وجهها الذي طالما شاهدته هادئاً خاضعاً لإرادتها ، يبدو - لدهشتي

العظيمة - مكشوفاً . وراحت تحملق في خلال الصور التي أنارتها عبارتي ، فلما رأتني أخيراً أو مات برأسها وهي تقول معذرة :
- كان من الواجب أن أنبهم ، لكنني كنت مجهدة فعجلت بالرحيل .

فأكملت دون تفكير :
- والآن ..
غير أنها قاطعتني متسائلة وفي عينيها نظرة ازدراء :
- والآن ماذا ؟

فأجبتها وأنا أدعك يدي في بلاهة :
- الآن قد وصلت ، وتعرفين كم يسعدني وجودك .
إنني أنتظرك في (التراس) ، وإذا احتجت شيئاً فالبار معد .
وخرجت وأنا أتمتم ، وهبطت السلم في ارتباك فكري شديد :
علام ذلك الوجه المكشوف ، وذلك الصوت المضطرب ، وذلك الامتقاع ؟ واستلقيت في مقعد وأغلقت عيني ، ثم أخذت أحاول استعادة شتى تعبيرات وجهها الجامد المطمئنة : السخرية ، والراحة والتسلط . وقضيت ساعة أفترض القروض ، فقد كان اكتشاف ذلك الوجه المتأثر يهزني ويهيجني في الوقت ذاته : هل كانت تحب أبي ؟ أكان من الممكن أن تحبه ؟ لم يكن فيه ما يتفق وميولها ، فقد كان ضعيفاً متسرعاً .. وغداً في بعض الأحيان ! ولكن ألا يحتمل أن يكون ذلك أثراً لما قاست في رحلتها ، أو ثورة لمبادئ الأخلاق ؟

وفي الساعة الخامسة وصل أبي مع إلزا . ورحلت أنا مله وهو

هبط من العربة، وأنا أحاول أن أعرف ما إذا كان في استطاعة آن أن تحبه . وأقبل نحوي في خطوات سريعة وهو يبتسم ورأسه إلى الوراء قليلا، فبدل من المحتمل جدا أن تتعلق به آن .. بل ومن المحتمل جدا أن تتعلق به أية امرأة ! وعندما اقترب مني صاح يقول :

- لم تكن آن هناك ، ولعلها لم تسقط من القطار .

- لقد أنت بالعربة ، وهي الآن في غرفتها .

- لا ؟ مدهش ! ما عليك إلا أن تأخذي إليها الزهور .

وعندئذ تساءلت آن وهي تهبط الدرج للقائه ، هادئة باسمة ، في رداء لا تبدو عليه آثار السفر :

- هل اشتريت لي زهورا ؟ تلك غاية الرقة .

وتذهبت في ألم إلي أنها لم تهبط إلا عند سماع صوت العربة . وقلت لنفسى أنها كانت تستطيع التبكير قليلا ، ولو لتحدثني عن امتحاني الذي كنت قد رسبت فيه ! غير أن هذه الفكرة الأخيرة لم تلبث أن عزتني .

واندفع أبي بلم يدها وهو يقول :

- لقد قضيت ربع ساعة على رصيف المحطة ، وفوق ذراعي هذه الباقة ، وعلى شفتي ابتسامة بلهاء .. والحمد لله ها أنت هنا . هل تعرفين إلزاما كنبرج ؟

- لا بد وأنا تقابلنا .. إن غرفتي بديعة .. غاية الرقة منك أن دعوتني ، فقد كنت مرهقة .

وقبع أبي ، الذي كان كل شيء يبدو لعينيه على خير حال ، وأخذ يثرثر ويفتح زجاجات الشراب . على حين رحت أستعرض

وجهي سيريل وآن العاطفيين المتسمين بالعنف ، الواحد تلو الآخر ، وأنا أسأئل نفسي ما إذا كانت الأجازه ستظل - كما كان أبي يعلن - هادئة .

وكان العشاء الأول غاية في المرح ، فقدراح أبي وآن يتحدثان فيما يتصل بعلاقاتهما المشتركة ، التي كانت على ندرتها زاهية الألوان . واستمتعت كثيرا .. حتى صرحت آن بأن شريك أبي كان غيبا . وكان شريك أبي هذا رجلا سكيراً ، غير أنه كان رفيقا رقيقا شاركناه - أبي وأنا - سهرات لا تنسى ، فاعترضت :

- إن لمبارد عجيب ، ولقد وجدته ظريفا ..

- ولكنك تعترفين أن ذلك غير كاف ، وحتى فكاهاته ..

- ربما لم يكن له مظهر الذكاء المعتاد ، ولكن ..

فقاطعتني في لهجة ودودة :

- هذه التي تدعي أنها مظاهر الذكاء ليست في الواقع سوى السنين .

وسحرتني عبارتها الموجزة القاطعة ، فقد كانت بعض العبارات

تهيم بجوا عقليا دقيقا يسيطر على .. وإن لم أفهمها تماما ، وجعلتني عبارتها تلك أتمنى لو كان بيدي دفترًا وقلما . وصارحتنا بذلك ، فقال أبي وهو يضحك :

- على الأقل .. لست بالحقود .

ولم يكن في استطاعتي أن أكون كذلك ، فما كانت آن

بسيئة النية .. كنت أحسها غير مكترثة على الإطلاق ، ولم يكن

لأحكامها ذلك الضبط وذلك الجانب الحاد من الخبث .. لم تكن في الواقع

سوى أحكام قاسية .

وفي تلك الليلة لم يبد على أن عمدا أو دون قصد- أنها لاحظت شرود إلزا التي دخلت ، إلى غرفة أبي رأسا وكانت قد أحضرت لي (جرسا) من مجموعتها غير أنها لم تدعني أشكرها ، فقد كان الشكر يضايقها . ولما لم يكن امتناني ليبلغ ذروة الحماس أبدا ، فاني لم أكلف خاطري !

وقالت قبل أن أتركها :

- إنني أجد هذه إلزا في منتهى الرقة .

ثم راحت تنفوس في عيني دون أن تبتم . كانت تبحث في عن فكرة يهملها أن تزيلها ، وصار من الضروري أن أنسى تأثيرها السابق ، فقلت :

- نعم . . نعم ، إنها بديعة . . فتاة جذابة جدا !

و كنت أتلعم ، فأنفجرت تضحك . وذهبت لأنام متوترة الأعصاب . . وعندما بدأ النوم يداعب عيني كنت أفكر في سيريل الذي ربما كان ، في ذلك الوقت ، يراقص الفتيات في كان . وفجأة تنبتهت إلى أنني أنسى ، مسوقة إلى أن أنسى الأمر الهام : وجود البحر ، وهديره المستمر ، والشمس . كما لم أعد أذكر أشجار الزيزفون الأربع في فناء مدرستي الريفية ، أو عبيرها . وابتسامة أبي علي رصيف المحطة منذ ثلاث سنوات عند مغادرتي المدرسة ، ابتسامة الحرج التي سببتها ضفيرتهاى وزبي القاتم القبيح . وانطلاقة المرح التي استولت عليه في العربة فجأة ، عند ملاحظ أن لي عينيه وفه ، وأحس أنني سأكون له أغلى وأبدع لعبة . لم أكن أعرف آنئذ شيئا ، فاعتزم أن يستعرض أمامي باريس وأسباب الترف فيها ،

والحياة السهلة . ولا شك أنني أدين للمال بالجانب الأعظم من مسرات ذلك الوقت : الانطلاق في عربة ، والحصول على رداء جديد ، وشراء التسجيلات والكتب والأزهار . وإذا كنت آسف اليوم لأشجاني وأزمتني النفسية ، وأستنكرها في يسر أشد ، فاني ما زلت حتى الآن لا أحس خجلا من تلك المسرات البسيطة ، والتي ما كنت لأصفها بالبساطة لو لم أسمعهم يدعونها كذلك . ذلك أن شغفي بالسعادة يمثل الجانب الوحيد المتناسك من طباعي . . أتراني لم أقرأ كفايتي ؟ في المدرسة لم تكن نقرأ ، فان فعلنا اقتصر الأمر على الإنتاج النموذجي . وفي باريس لم أكن أملك من الوقت ما يتيح لي أن أفعل : عند انتهائي من الدرس كان يصحبني إلى دور السينما أصدقاء ، يثير جهلي بأسماء الممثلين دهشتهم . أو يأخذونني إلى شرفات مقاه مشمسة ، حيث أستمتع بالاندماج في الجماهير وتعاطي الشراب ، ومصاحبة رجل يتطلع إلى عيني ثم لا يلبث أن يتناول يدي ليقودني بعيدا عن الزحام . . كنا نسير في الطرقات حتى المنزل ، وهناك يجذبني إلى ظلال أحد الأبواب ويقبلني : كنت لا أزال أكتشف لذة القبلات ! لا . . لن أسمى أولئك الذين أضحووا ذكريات : جان . . هوبرت . . جاك ، فكلها أسماء مشتركة بين جميع الفتيات الصغيرات ! وفي المساء كنت أكبر ، إذ أخرج مع أبي إلي سهرات على قدر كاف من الاختلاط ، لا أجد فيها ما أصنعه سوى الاستمتاع وإمتاع الآخرين بشبابي . وعند عودتنا ، كان أبي ينزلي أغلب الأحيان ثم يذهب ليوصل إحدى صديقاته ، ولم أكن أحس به يعود .

ولا أحب أن يذهب الظن إلى أنه كان يتباهى بمغامراته أمامي، غاية الأمر أنه لم يكن يخفها عني. أو بعبارة أدق، كان يكتفى بالأمر يقول لي شيئاً حقيقياً أو مزيفاً ليبرر كثرة تناول إحدى صديقاته الإفطار أو إقامتها لدينا، إقامة مؤقتة لحسن الحظ! فما كان من الممكن أن أظل طويلاً على جهلي بطبيعة علاقاته بتلك «المدعوات». وكان جريصاً بلا شك على الاحتفاظ بثقتي فيه، كما وأنه كان يتنادى بطريقته البارعة هذه، بمجهودات ذهنية مؤلمة. كان عيبه الوحيد إيجاهه إلى، زمناً ما، بوقاحة جسورة فيما يتصل بالحب الذي كان حرياً أن يبدو - بالنسبة لسني وتجاربي - مرحاً أكثر منه مؤثراً.. حتى أنني صرت مولعة بترديد عبارات خطيرة، اخترت من بينها شعاراً، قول أوسكار وايلد: «الخطيئة هي اللون الحى الوحيد الذي يدوم في العصر الحديث». فعلت ذلك في اقتناع كامل وثقة أشد، فيما أعتقد، مما لو كنت قد وضعته موضع التجربة. وبت أو من بأن حياتي يمكن أن تنطبق على ذلك القول، وأن تستوحيه وتنبثق منه، كصورة إنبالية * فاسدة كنت قد نسيت حياتي الماضية بما فيها من تغيير وإحساسات يومية طيبة، وأصبحت أتصور الحياة المستهتره الدنيئة.. مثلاً أعلى.

* إبنال، مدينة فرنسية على نهر على الزوج بالقرب من باريس، تشتهر بالصور والأثاث.

وأيقظتني صباح اليوم التالي، أشعة الشمس الساخنة. أغرقت فراشي ووضعت حداً لأحلام عجيبة غامضة بعض الشيء، كنت فيها أقاوم نفسي. وحاولت، قبل أن أتنبه تماماً، دفع ذلك الوهج الملح بيدي، غير أنني لم ألبث أن كففت. وكانت الساعة العاشرة، عند ما هبطت في (البيجاما) إلى (التراس) حيث كانت آن تغلب صفحات الجرائد. ولاحظت أنها تضع (مكيابا) خفيفاً.. ما كانت لتمنح نفسها أجازة حقيقية أبداً. ولم تنتفت إلى، فجلست في هدوء فوق إحدى الدرجات وفي يد برتقالة وفي الأخرى قدح من القهوة، ثم بدأت متع الصباح: قضمت البرتقالة فتناثر عصيرها السكرى في فمي، وأتبعته بجرعة سوداء ملتربة.. ثم عدت من جديد إلى طراوة الفاكهة. وكانت شمس الصباح تلهب شعري وتشد ما تراخي من جلدي، ولكن ما أن بدأت أفكر في المياه حتى فاجأني صوت آن:

- سيسيل، ألا تأكلين؟

فأجبته:

- أفضل ألا أكل في الصباح، فان..

غير أنها قاطعتني:

- ولكنك في حاجة إلى ثلاثة (كيلو) أخرى لتصيري مقبولة.

أولاً ترين خدك الأجوف وضلوعك البارزة ؟ هيا اطلبي بعض الشطائر .

ورجوتها أن تعفيني من تناول الشطائر ، فشرعت تبين لي ضرورتها . وفي تلك اللحظة ظهر أبي في ستره نومه الفاخرة المنقطة وصاح :

- أي منظر جذاب . . شابتان لوحتهما الشمس تتحدثان عن الشطائر .

فردت عليه آن ضاحكة :

- بل شابة واحدة يا عزيزي ريمون . إنني في مثل سنك يا صديقي المسكين !

فانحنى يمسك بيدها وهو يقول في حنان :

- دائماً أنت هكذا . . قاسية !

ورأيت جفنيها يدقان ، وكأنما مستها على غير انتظار يدملاطفة ، فانهزت الفرصة لأنسحب . وفوق الدرج التقيت بالزا ، كان من الواضح أنها هابطة من الفراش توا ، فقد كان جفناها منتفخين وكانت شفتاها باهتتين وسط وجهها الذي حولته الشمس قرمزياً . وكدت أستوقفها لأخبرها أن آن تجلس في (التراس) نضرة الوجه . وأنها في طريقها إلى اكتساب سمرة تدريجية ، دون ماضرر . كدت أحذرهما ، غير أنها كانت حريصة أن تسي . فهم كلامي بلا شك : كانت في التاسعة والعشرين ، تصغر آن بثلاث عشر سنة . . وكان ذلك يبدو لها فوزاً ساحقاً !

وأخذت لباس البحر وجريت إلى الخليج حيث وجدت - لدهشتي -

أن سيريل قد سبقني إلى هناك . كان يجلس فوق قاربه ، وما أن رأيته حتى قفز ليمسك بيدي ثم يقول وعليه سياء الجدد :

- أريد أن أطلب عفوك على ما بدر مني بالأمس .

فقلت :

- لقد كانت غلطتي .

ولم أكن أحس حرجاً على الإطلاق ، إلا أن لهجته الرسمية كانت تضايقني .

وعاد يقول وهو يدفع القارب إلى المياه :

- إنني شديد الاستياء من نفسي .

فقلت في لهجة مرحة :

- ليس هناك ما يستوجب . .

- بل هناك !

و كنت ، في هذه الأثناء ، قد صعدت إلى القارب . أما هوفكان لا يزال واقفاً والمياه إلى منتصف ساقيه ، يستند إلى الحاجز بكلي يديه كأنما يقف في قفص اتهام . وأدركت أنه لن يصعد قبل أن ينهي حديثه ، فتوجهت إليه بكل انتباهي . وكنت أعرف وجهه جيداً وأرى نفسي فيه ، وخطر ببالي في تلك اللحظة أنه في الخامسة والعشرين ، وربما كان يظن نفسه قاتناً ! وأضحكني ذلك الخاطر فصاح معترضاً :

- لا . . لا تضحكني ، إنني لم أرض عن نفسي مساء الأمس كما

تعرفين . لم يكن هناك ما يحميمك مني ، وأبوك . . وتلك المرأة ،

المثل ! لقد كان في إمكاني أن أكون أخس الأندال .. ولا يتغير من الأمر شيئاً ، إذ كنت حرة مع ذلك أن تتعلق بي .
ولم يكن حتى مضحكا . وأحسست أنه حسن الطوية ، على وشك أن يحبني ، وأنتى أميل إلى التعلق به . وأحطت عنقه بذراعي وأسندت خدي إلى خده ، وهمست :
- سيريل ، إنك في غاية الرقة ، وستكون لي أخاً .

فطوقني بذراعيه وهو يزجر ، ثم انتزعني في رقة من القارب ، ليضمنني إليه ويبقيني هكذا معلقة في الهواء ، ورأسي على كتفه .. وفي تلك اللحظة أحسست أنني أحبه . كان يبدو في ضوء الصباح ذهبي اللون ، رقيقاً ، عذبا مثلي ، فلم أستطع - عندما سعي فيه إلى شفتي - إلا أن أشاركه رعشة اللذة . وكانت قبلتنا بلا ندم ولا خجل ، مجرد رغبة عميقة تقطعها الهمسات . وأخيراً أفلت من بين ذراعيه ، واندفعت أسبح في اتجاه القارب الذي كان التيار قد جرفه . ورحت أغمر وجهي في المياه الخضراء ، لأجدده وأنعشه ، وأنا أحس سعادة غامرة وخلو بال تام .

وفي الحادية عشرة والنصف رحل سيريل . ثم لم يلبث أبي أن ظهر مع نسائه ، في أعلى الطريق . كان يسير بين الالنتين ، يسندهما ويمسك أيديهما على التوالي ، في لطف طبيعي لا يملكه سواه . وكانت آن ترندى (برنسا) فلما وصلوا خلعتهم في هدوء وافترشته ، كاشفة أمام عيوننا الفضولية خصرأ دقيقاً وساقين ، كاملتين لا يعيبهما سوى ذبول تافه .. وكان ذلك يمثل ، بلا شك ، سنوات من العناية . ووجهت إلي أبي نظرة استحسان يعلوها حاجب مرفوع .. ولكنه

- لدهشتي - أغمض عيني دون أن يرد عليها . أما إلزا المسكينة فكانت مشغولة بغطية بشرتها بالزيت ، وقد أصبحت في حالة محزنة . ولم أقدر لأبي غير أسبوع واحد ..
وجفاة أدارت آن رأسها نحوي وهي تتسأل :

- سيسيل ، لم تبكرين في النهوض ها هنا ؟ لقد كنت ، في باريس ، تلزمين الفراش حتى الظهيرة من كل يوم ، فأجبتها :

- في باريس كان لدى ما يقصم ظهري .
غير أنني لم تبتم ، وما كانت لتبتم إلا عند ما تريد .. وأبداً لم تكن تفعل ذلك بمجاملة كسائر الناس . ولم تلبث أن عادت تتسأل :
- وامتحانك ؟

- ضاع ! ضاع تماماً !
- عليك إذن أن تعيده في أكتوبر .
وتدخل أبي متسائلاً :

- وما الداعي ؟ أنا نفسي لم أحصل على أي دبلوم . ومع ذلك ، ها أنا أحياء حياة رغدة .
وأولئك لها ذكركه :

- لقد كنت تملك في البدء ثروة كبيرة .
فرد في عظمة :

- ستجد ابنتي دائماً رجالاً يقولونها :
والفجرت إلزا تضحك ، غير أنها لم تلبث أن توقفت أمام

نظراتنا . ثم قالت آن وهي تغلق عينيها لتنهى المناقشة ::

- عليها أن تعمل في هذه الأجازة !

وأرسلت إلي أبي نظرة يائسة ، فأجابني بابتسامة تنطق بالقصيق والخرج . وتخيلت نفسي أمام صفحات من برجسن - طالما قفرت سطورها السوداء إلى عيني - وضحكات سيريل تتراجم إلى أذني من تحت .. فأحسست الفزع ، وزحفت حتى آن وناديتها همسا . وفتحت عينيها ، فأحسيت فوقها وجها قلقا متضرعا ، ثم قلت وأنا أطبق خدي لأبدو في هيئة الطالبة المرهقة :

- آن .. لن تصنعني بي هذا . لن ترغميني على العمل في هذا اللهيبي ، في هذه الأجازة التي يمكن أن تفيدني كثيرا .

فتفرست في لحظة ، ثم حولت رأسها وهي تبسم في غموض وتقول :
- ينبغي أن أصنع بك « هذا » ، ولو في هذا اللهيبي كما تقولين . ولن تمقتبني سوى يومين ؛ إنني أعرفك . وستؤدين في النهاية امتحانك .

لكنني أجبتها جادة :

- هناك أشياء لا يستطيع الإنسان أن يعود بها .

ورمتني بنظرة ساخرة متعالية ، فعدت أرقد فوق الرمال ، يملؤني القلق . ورجت أستمع إلي إلزا وهي تثرثر حول حفلات الساحل ، وأراقب أبي الذي لم يكن يسمع مما تقول شيئا : كان يتطلع ، من مكانه على رأس المثلث الذي تكونه أجسادهم ، إلى رأس آن وكثفها ، بنظرات جسورة ثابتة نوعا ما .. نظرات كنت أعرفها

تماما ! بينما راحت يده تنفرد فوق الرمال وتنقبض ، في حركة هادئة منتظمة لا تمل . ثم لم ألبث أن انطلقت إلى البحر ، ألقي بنفسي بين أمواجه وأنا أنحسر على الأجازة التي كنا نستطيع أن نحصل عليها ، والتي لن نحصل عليها ! كانت لدينا كل العناصر لمأساة : فأتن ، وعاهرة ، وامرأة فطنة ! ولحت في أعماق المياه قوقعة بديعة ، وحجرا أزرق ورديا غطست لآخذه واحتفظ به في يدي ناعما أملس ، حتي الغداء .. ثم اتخذته تيممة لا أتركها طوال الصيف . ولست أعرف كيف أنني لم أفقده كما أفقد كل شيء ، إنه في يدي الآن ورديا دفيئا ، يغريني بالبكاء ..

فأننى كنت مخطئة أول يوم . ولم أكن أدرك أن تلك الرقة البريئة
تستثير أبني ، ويستثيره على وجه الخصوص صمتها ، ذلك الصمت
الطبيعي الأنيق الذي يكون مع ثرثرة إلزا غير المتوقفة ، نوعاً من
التضاد كالشمس والظل . مسكينة إلزا .. لم تكن حقيقة تشك في
شيء ، فلم تزل تضطرم وتفيض حيوية ، ولم تزل الشمس تذبلها .
ومع ذلك كان من المحتم أن تفاجئ ، ذات يوم ، إحدى نظرات
أبي . فتفهم ..

وشاهدتها قبل الغداء تهمس في أذنه شيئاً استنكره لحظة ، في
دهشة ، ثم لم يلبث أن وافقها وهو يتسم . وقامت بعد الغداء
لتقف عند الباب وتستدير إلينا في دلال بدلى مستوحى من الأفلام
الأمريكية ، ثم تتسائل في نبرات صاغت عشر سنوات من الغزل
الفرنسي :

- ريمون .. هل أنت آت ؟

فقام حمر الوجه ، وتبعها وهو يتحدث عن محاسن القيلولة ! ولم
تشركه آن ، ولم تزل لفاقتها تدخن بين أطراف أصابعها . ورأيت
من واجبي أن أقول شيئاً ، فشرعت أحدثها :
- يدعون أن القيلولة مريحة جداً ، ولكنني أعتقد أن هذه
الفكرة مزيفة .

ثم لم ألبث أن توقفت في الحال ، متنبهة إلى ما في عبارتي من
جناس ، وفي نفس اللحظة صاحبت آن في جفاء واضح :

- أرجوك !

كانت قد أدركت في التوسمجة المزاح .. ونظرت إليها فهزني

كان أشد ما أدهشني خلال الأيام التالية ، ورقة آن المتناهية نحو
إلزا . لم تعد تعقب على الحماقات العديدة التي كان حديث إلزا يفيض
بها ، بواحدة من تلك العبارات القصيرة التي كانت تملك سرها ،
والتي كانت حرية أن تغطي إلزا بالسخرية . وجعلت أمتدح
صبرها وكرمها فيما بيني وبين نفسي دون أن أقنعه إلى ما كان
يمتزج بهما من حذق . ولقد كان حرباً بأبي أن يمل سرباً تلك
اللعبة الوحشية الصغيرة ، ولكنه كان .. على العكس - مقدراً لأن ،
حائراً لا يعرف ماذا يصنع ليبر لها عما يحس نحوها . إلا أن ذلك
التقدير لم يكن سوى حجة ! كان يحدثها في احترام متناه ، بلا شك ،
ويعاملها كأمر ثانية لابنته : كان يستخدم حتى تلك الورقة ، متظاهراً
باستمرار بوضعي تحت رعايتها ، واعتبارها مسئولة عن بعض الشيء ..
وكانما ليجعلها أكثر قرباً وأشد ارتباطاً بنا . ومع ذلك ، فقد كانت
تبد منه نظرات وحركات .. أخرى ، موجهة إلى المرأة التي لم
يكن أحد يعرفها ، وإن اشتهى الجميع معرفتها .. في الملمات !
ذات النظرات التي كنت أضبطها في عيني سيريل ، فتشير في ذات
الوقت رغبتى في الحرب وفي استثارته ! ولا بد وأننى كنت
من هذه الناحية أشد تأثراً من آن ، فقد كانت تبدو نحو
أبي عدم اكتراث ورقة هادئة ، يطمئنانى ويدفعانى إلى الاعتقاد

وجهها الذي سرعان ما أعادته إرادتها هادئاً مشدوداً . ولعلها كانت ، في تلك اللحظة ، تحسد إلزاً أشد الحسد ! وواتتني لتعزيتها فكرة وقحة ، أسعدتني كسائر أفكارى الوقحة التي كنت مستطبعة أن أحصل عليها ، فتثير في نوعاً من الثقة بالنفس والتمسك بها . ولم يكن في استطاعتي أن أرد نفسي عن التعبير عنها في صوت مرتفع ، فاندفعت أقول :

— أولاً ترين ؟ إن تلك القيلولة لا يمكن أن نحقق ، مع ما أصاب إلزاً من لسعات الشمس ، أية نشوة .. لا لها ولا له ! وكان من الأفضل لو أنني لم أتكلم ، فقد انفجرت آن تقول : — إنني أحتقر هذا النوع من التعليقات . إنها لا تمثل ، في مثل سنك ، مجرد الغباء . إنها مؤلمة .

فتراجعت مسرعة :

— إنما قلت ذلك على سبيل المزاح ، فمعدرة . إنني واثقة من أنهما في غاية السعادة !

فأدارت نحوي وجهها ينتفض بالغضب ، جعلني أسارع إلى طلب عفوها . غير أنها لم تلبث أن استأنفت في صوت منخفض صبور : — إنك تجعلين من الحب فكرة تافهة نوعاً ما ، فليس الحب تدفق مشاعر مستقلة بعضها عن البعض ..

وتذكرت ، عندئذ ، أن كل غرامياتي كانت هكذا .. عاطفة فجائية أمام وجه ما أو تحت تأثير قبلة . مجرد لحظات مرحة لا اتصال بينها ، ذلك كل ما تبقى لي من ذكراها . واستأنفت آن :

— إنه شيء آخر . هناك الحنان المستمر ، والرقّة ، والوحشة .. أشياء لا يمكن أن تفهمها .

ثم لوحت بيدها في ضيق ، وتناوات جريدة . وتمنيت لو تغضب ، لو تخرج عن عدم اكتراثها المستسلم أمام جهلي العاطفي . ثم تنبّهت إلى أنها على حق ، وأنني بأنسة ضعيفة ، تعيش كحيوان .. على هوى الآخرين ، فبدأت أكره نفسي . وآلمني ذلك أشد الألم ، لما كنت معتادة أن أدينها أو أن أحاسبها .. على حسنة أو على سيئة ! وصعدت إلى غرفتي لأهيم مع أفكارى ، وأستعيد قول آن « إنه شيء ، آخر إنه الوحشة .. » . ترى هل أوحشني أحد أبداً ؟

وتلوح ذكريات الأسبوعين التاليين ، في أعماق ذاكرتي ، باهتة غير واضحة .. فقد كنت أجاهل كل تقييد لحريتنا أو تهديد لأمننا ؛ ولقد قلت من قبل إنني لم أكن أطيق شيئاً من ذلك . لكنني أذكر أحداث بقية الأجازة ، أذكرها تماماً بلا شك .. فقد جشدت لها كل انتباهي وكل إمكانياتي .

ولكن لارجع إلي الأسابيع الثلاثة الأولى ، السعيدة في مجموعها . تري في أي يوم تطلع أبي إلى قم آن جهرًا؟ أهو يوم لامها في صوت مرتفع على فتورها ، متظاهراً بأنه إنما يعاتبها ؟ أم هو يوم قارن جادا بين رقتها وسخافة إلزاً ؟ لقد انقضت تلك الأسابيع في هدوء .. وكان هدوئي خلالها يستند إلى هذه الفكرة البلهاء التي تتلخص في أنهما كان يعرفان بعضهما منذ خمسة عشر عاماً ، فلو لم يكن بد من

أن يتحاجبا لشرع في ذلك منذ زمن بعيد ! كنت أقول لنفسي إنه لو تحتم ذلك لما بقي أبي على غرامه بها أكثر من ثلاثة أشهر ، ولما احتفظت آن من ذلك الغرام بغير بعض الذكريات المؤلمة والهوان .. مع أنني كنت أعرف أنها ليست بالتي يمكن هجرها هكذا !

غير أن سيريل كان هناك ، يشغل تفكيري . كنا نخرج سويا أغلب الأمسيات لتركض في ملاهي سان تروبيه على أنغام كلارينيت ناعمة ، وتبادل عبارات غزل عذبة .. أصبح وقد نسيتها . وفي الصباح ، نبحر حول الشاطئ ، يصحبنا بعض الأحيان أبي الذي كان يعامل سيريل في كثير من التقدير ، خاصة بعد أن تركه هذا يتغلب عليه في مباراة سباحة على الظهر ! كان يدعو « صغيري » وكان سيريل يناديه بيا « سيدى » .. أما أنا فكنت أتساءل أى الاثنين أكثر نضجا !

وذهبت ، بعد ظهر أحد الأيام ، نتناول الشاي عند والدتي سيريل . وراحت تلك العجوز الهادئة الباسمة تحدثنا عن متاعبها .. كأرملة وكأم ، فجعل أبي يكيل لها عبارات المديح ، وهو يختص آن بنظرات التقدير .. ما كان ليضيع وقته أبدا ! وظلت آن ترقب المشهد بابتسامة لطيفة ، حتى انصرفنا . ثم أعلنت ، بعد عودتنا ، أنها سيدة جذابة ، فاتفجرت أصب اللعنات على رؤوس العجائز من ذلك النوع . ومع ذلك فقد واجهاني ، - هي وأبي - بابتسامة ساخرة متسامحة ، أخرجتني عن طوري لأصيح :

- أنتما لا تدركان أنها معجبة بذاتها . إنها تهني نفسها على حياتها إذ تحس أنها أتمت واجبها ، و ..

وقاطعتني آن :

- ولكن هذا صحيح . لقد قامت بواجبها كام وكزوجة ، بكل ما في العبارة من معنى ..

فتساءلت :

- وواجبها كأنني ؟ !

فردت آن :

- أنا لا أحب الوقاحة ، ولو تضمنت غرابة أو حذقا ..

لكنني لم أسكت ، بل استأنفت :

- ليس في الأمر غرابة ما أوحذقا . لقد تزوجت كاتزوج الفساة جميعا ، عن رغبة .. أو لأنه الأمر المعتاد ! ورزقت طنلا ، ولعلك تعرفين كيف تأتي الأطفال ..

فقات ساخرة :

- أقل من معرفتك بلاشك ، غير أن لي بعض الإلمام على أي حال ! فأكلت :

- لقد ربت ولدها إذن ، ولعلها وفرت على نفسها حسرات ومتاعب الفحشاء ! لقد عاشت حياة آلاف النساء ، وإنها لفخورة بها كما تعرفين . لقد شغلت مركز شابة برجوازية .. زوجة وأم ، ولم تحاول الإقدام على ما قد يعرضها لفقدانه . وهي راضية عن نفسها لأنها لم تفعل كذا ولا كذا .. لا لأنها حققت شيئا ما ! وتدخل أبي قائلا :

- ليس لما تقولين أي معنى :

فصرخت :

- إن هي المرأة قنبر ! * ويقال بعد ذلك إنها أدت واجبها ..
لمجرد أنها لم تفعل شيئاً ؟ ! لو أنها ، وقد ولدت في وسطها هذا ، صارت
فتاة طريق .. لاستحقت بعض المديح !
فعلقت آن :

- إن لك أفكاراً عصرية ، غير أنها تافهة .
ولعل ذلك كان حقيقياً ، فلئن كنت أعني ما أقول ، إلا أنني
في الواقع كنت قد سمعته يقال . ومع ذلك فإن حياة أبي وحياتي كانتا
تجربان على أساس من ذلك ، فكان طبيعياً أن يجرحني ما أبدت
آن من احتقار لأفكاري . إلى أنه من حق الإنسان أن يتعلق بما
يروق له من أفكار ، وهو يستطيع دون شك أن يتعلق بالتافهة
منها ! ولكن آن لم تكن تعتبرني كائناتاً مفكراً .. فكان من الأهمية
بمكان أن أثبت لها خطأها ، وإن لم يدر بخلدني أن الفرصة ستتاح لي
وشيكاً ، وأنتي سأعرف كيف أستغلها .. بيد أنه لم يكن من المستبعد ،
أن تتغير آرائني في أي موضوع .. تماماً ، خلال شهر واحد !
وماذا كان يرتجى مني غير ذلك ؟

وحلت النهاية أخيراً . قرر أبي ذات صباح أن نذهب لقضاء
السهرة بين لعب ورقص ، في كان . ولا أزال أذكر مرح إلزا التي
كانت تعتقد أن جو الملاهي المألوف لديها ، معيد إليها ما أذبلت
لسعات الشمس وشبه العزلة التي كنا نعيش فيها ، من شخصيتها ..
شخصية المرأة اللعوب ! وعلى خلاف ما توقعت ، لم تبد آن أي
اعتراض ، بل على العكس بدا عليها قدر كاف من الرضى . وهكذا صعدت
إلى غرفتي بعد العشاء مباشرة هادئة البال ، لأرتدي لباس السهرة
الوحيد الذي كنت امتلكه ، ذلك الذي انتقاه أبي من طراز غير ملائم
لي ، أكثر قليلاً مما ينبغي بلا شك .. فقد كان ميالاً بذوقه ،
أو عادته ، إلى الباسي ثياب امرأة لعوب ! وعند ما عدت إليه
وجدته يتلأأ في لباس سهرة جديد ، فأحطت عنقه بذراعي
وأنا أقول :

- إنك أجمل من أعرف من الرجال .

فأجاب دون أن يعنى ما يقول :

- باستثناء سيربل ، وأنت أجمل من أعرف من الفتيات .

فقلت بدوري دون أن أعني ما أقول :

- بعد إلزا وآن !

* امرأة القنبر - آلة تتكون من مرايا كثيرة صغيرة ، تجذب إليها القنبر بما

تعكس عليها من ضوء الشمس .

فرد متضا حكا :

- ما دامت غير موجه دتين واستباحتا أن تتركاني الانتظار،
فتعالى راقصي أباك العجوز وروما تزمه .

وعدت أحس بتلك النشوة التي طالما كانت تتملكنى قبيل
خروجنا سوياً ، فقد شذا أثناء الرقص عبيره المألوف ، المنبعث من
ماء الكولونيا والحرارة والتبع . لم يكن في الواقع يشبه أبا عجوزا
البعة ، فقد كان يرقص في أتران وعيناه مسبلتان ، تفتت شفتاه عن
ابتسامة قصيرة سعيدة . . . كابتسامتى لا يمكن الحيلولة دونها . ولم
يلبث أن قال متناسيا رومما تزمه :

- ينبغي أن تعلمين رقصة ال . . . بيوب .

غير أنه سرعان ما توقف ليرحب في همس آلى متملق ، بالزا
التي كانت تهبط الدرج على مهل . . . تتبختر في رداها الأخضر
وعلى شفثيها ابتسامة مناسبة ، ابتسامة الملهي ! وكانت قد
صنعت بشعرها المجدد ، وبشرتها الملتهبة بفعل الشمس ، أقصى
ما تستطيع . . . غير أن أقصى ما استطاعت كان جديراً بالتقدير
أكثر منه بهيجا . ولكنها لحسن الحظ لم تكن تدرك ذلك !

ولم تلبث إلزا أن تساءلت :

- أنسير ؟

فرددت :

- لم تهبط آن بعد .

فقال أبى :

- انظري إذا كانت مستعدة ، فسينتصف الليل قبل أن نصل
إلى كان .

وصعدت الدرج أتعثر في ردائى . وطرقت الباب فدعتنى
للدخول ، لكننى توقفت في المدخل ، أتأملها : كانت تلبس رداء
رمادياً ، رماداً عجيباً . . يكاد يكون أبيضاً ، يتعلق به الضوء كما تتعلق
بالفجر بعض ألوان البحر . كانت كل مفاتن الأنوثة متجمعة فيها
تلك الليلة ، فلم أتمالك عن الصياح :

- رائع ! ياه ! ياله من رداء !

فابتسمت وهى تنظر فى المرأة . . كأنما تودع نفسها ، ثم قالت :

- إن هذا الرمادى نجاح .

وأجبتها :

- إنما « أنت » نجاح .

فأمسكت بأذنى وراحت تتطلع إلى . . كان لها عيتان زرقاوان
داكنتان ، راحتا تبسمان فى إشراق وهى تقول :

- إنك صغيرة ورقيقة ، رغم أنك تكونين فى بعض الأحيان . .
متعبة !

ثم تقدمتني دون أن تفحص ردائي الجديد ، الأمر الذى
أسعدنى . . وساءنى فى الوقت ذاته . وعندما شرعت تهبط
الدرج رأيت أبى يتقدم للقائها ، ثم يقف وقدمه على أول درجة
ورأسه مرفوع إليها . . وكانت إلزا ، أيضا ، ترقبها ! وإننى
لأذكر تماما ذلك المنظر : فى الطرف القريب ، أمامى ، عنق آن
الذهبي وكتفها الكاملتان ، وأبعد قليلا إلى أسفل وجه أبى

المنذهل وبده الممدودة ، أما خيال إلزا فكان هناك . . في أقصى
المنظر !

وهتف أبي :

- آن ، إنك رائعة .

فعبثته وهي تبسم . . لتأخذ معطفها ، ثم تساءلت :

- نلتقي هناك ؟ سيسيل ، هل تأتين معي ؟

وتركتني أقود عربتها . وكان الطريق يبدو بالليل جميلاً
نطلقت على مهل ، على حين استغرقت آن في صمت عميق حتى أنها
لم تبد استجابة ما لموسيقى النفير الصاخبة المنبعثة من المذياع ، ولم
تحرك ساكناً عندما لحقت بنا عربة أبي ثم سبقتنا في إحدى
المنعطفات . وبدأت أحس نفسي خارج الحلقة ، أمام مشهد لم أعد
مستطية أن أتدخل فيه .

وما أن بلغنا الملهى حتى تفرقنا سريعاً ، بفضل مناورات
أبي ! ووجدتني أمام البار مع إلزا ، وأمريكي جنوبي من
معارفها على اتصال بالمسرح ، بلغ من شغفه به أن نجح - على الرغم
مما كان عليه من سكر - في استثارة اهتمامي . وأمضيت معه نحواً
من ساعة لطيفة ، إلا أن إلزا كانت برمة ضجرة . . فقد كانت
تعرف بعض عمالقة الفن ، ولكن الفن ذاته لم يكن ليثير اهتمامها .
ونجاة سألتني عن مكان أبي ، وكأنما كان في إمكانني أن أعرف

عن ذلك شيئاً ، ثم تركتنا وابتعدت . وبدأ الأمريكى حزينا
لابتعادها لحظة ، إلا أن كأساً جديدة من الويسكى أعادت إليه
مرحه . واستغرقتني النشوة بعد أن شاركته الشراب . . تأدياً ، فلم
أعد أفكر في شيء ما . ولكن الأمور لم تلبث أن أوضحت أكثر
طرافة عند ما أراد أن يرقص ، فقد كان عليّ أن أسنده بذراعيّ
وأن أحتفظ في نفس الوقت بقدمي بعيدتين عن قدميه ، الأمر الذي
كان يتطلب الكثير من الجهد . وعند ما عادت إلزا كنا نتبادل
الضحكات في ابتهاج . . حتى أنني كدت أبعث بها إلى الشيطان
عندما طرقت كتفي فتلفت وشاهدت على وجهها سمات كاساندر* ،
لولا أن سارعت تقول :

- لم أجدهما !

وكانت في حالة تدعو إلى الاشفاق ، بوجهها الحزين الذي تساقطت
عنه المساحيق تاركة ملامحه المتعبه عارية تماماً . ونجاة أحسست
الغضب يجتاحني ، لما أبداه أبي من قحة غير متصورة . ولكنني
لم ألبث أن قلت :

- إنني أعرف مكانهما ، سأعود سريعاً .

وإذ حرم الأمريكى من متكئته بين ذراعيّ سقط بين ذراعيّ
إلزا ، وسرمان ما بدت عليه سيماء الارتياح . ولا حظت في ألم أنها
أشد امتلاء مني ، غير أنني لم أكن مستطية أن أحسدها . وكان الملهى

* اسم شخصية في إحدى استكشاث الأدب الفرنسي القديم الفكاهية ، أب
يخدعه أبناؤه ويسخر منه الناس .

واسعاً : جست خلاله مرتين بلا نتيجة ، ثم استعرضت الشرفات ..
وأخيراً خطرت العربية ببالي .

واحتجت إلى بعض الوقت لأعثر عليها في الحديقة . وكانا
هناك : شاهديهما في المرأة عندما تقدمت من خلفهما ، يتطلعان إلى
بعضهما وقد تقارب وجههما . كانا يبدوان ، في ضوء القانوس ،
على جمال غريب ، ولا بد وأنهما كانا يتهامسان .. فقد كنت أرى
شفاهما تتحرك . وأحسست برغبة في الانسحاب ، غير أن حالة إلزا
جعلتني أنقدم إلى باب العربية وأفتحه . ورأيت يد أبي فوق ذراع
آن ، فسألت في أدب :

- أستمعان جيداً ؟

فانتفض أبي متسائلاً في لهجة غاضبة :

- ماذا هنالك ؟ ماذا تصنعين هنا ؟

فأجبت :

- وأنت ؟ منذ ساعة وإلزا تبحث عنك في كل مكان .

وعندئذ أدارت آن رأسها نحوي في بطل .. وكأنما تأسف
لذلك ، ثم قالت :

- إننا عائدان . قولي لها إنني أجهدت وإن أباك قد عاد بي ،

فاذا ما نلتما حظكما من المتعة ، عودا في عربتي .

فأخذت أنتفض غيظاً .. ولم أعد أدري ما أقول :

- بعد أن ينالاحظهما من المتعة ! وليكنكما لا تدريان ما تصنعان !

إنه مثير للاشمئزاز !

فقساهل أبي في دهشة :

- أي شيء هذا الذي يثير الاشمئزاز ؟

فصحت :

- تقود فتاة حمراء الشعر إلى البحر ، تحت شمس لا تتحملها ،

فاذا ما تسليخت بشرتها تماماً هجرتها ؟ أمر غاية في السهولة ! ماذا
تراني قائلة لها ، أنا ؟

وكانت آن قد استدارت إليه وعلى وجهها سمات الملل ، فراح

يبتسم لها غير منصت لما أقول . وبلغ مني الغضب منهاء ،
فرحت أصرخ :

- سأقول . سأقول لها أن أبي وجد امرأة أخرى ينام معها ..

وأن عليها ان تنصرف . أليس كذلك ؟

وانطلقت صيحة أبي الغاضبة في نفس اللحظة التي أصابتنى

فيها لطمة آن ، فسحبت رأسي بسرعة خارج العربية وقد آلمتني ..
وسرعان ما زجر أبي :

- فلتعذري .

غير أنني ثبت في مكاني لا أنحرك ، وقد دارت بي دوامة من

الأفكار .. لم تكن الكبرياء لتتملكني إلا متأخرة !

بيد أن آن لم تلبث أن قالت في لهجة مسالمة :

- تعالى هنا

فتقدمت منها لتضع يدها على خدي ، وتحدث إلي في رقة

وهدوء .. كأنما تتحدث إلى ساذجة :

- لا تكوني قاسية . إنني آسفة من أجل إلزا ، غير أن لك من الرقة ما يكفي لتدبير الأمر علي أحسن وجه . . . وغداً نتفاهم . أذبتك ؟

فأجبتها في أدب :

- قدرى أنت .

وأثارت رقتها الفجائية بعد ما كان من ثورتى ، رغبتى في البكاء . ورحت أرقبهما يرحلان وأنا أحس نفسي خاوية تماماً ، لا يعزبنى سوي التفكير فيما نسبته إلى من مقدرة . ثم لم ألبث أن استدرت عائدة إلى الملهى في خطوات بطيئة . . . وعندما لحقت بإلزا وجدت الأمريكى متعلقاً بذراعها ، فقلت في لهجة هادئة :

- لقد مرضت آن فاضطر أبى إلى العودة بها . ما رأيك في كأس ؟

ولكنها راحت تتطلع إلى دون أن تجيب ، فحاولت تفسيراً أكثر إقناعاً :

- لقد أصيبت بقي . . إنه لفظيع . . لقد اتسخ ثوبها تماماً . وكانت تلك التفاصيل تبدولى صارخة بالحقيقة ، بيد أنها راحت تنتحب وتنشج في صوت مكتوم . وأخذت أتطلع إليها في حيرة ، فقالت :

- سيسيل ، أوه . . كم كنا سعداء . .

ثم لم يلبث نحيبها أن تزايد ، بل وشرع الأمريكى أيضاً ينتحب ، وهو يردد بدوره : « كم كنا سعداء ، كم كنا . . » . وفي تلك

اللحظة أبغضت أبى وآن بغضا شديداً ، وكنت حريصة أن أصنع أى شيء لأكف المسكينة إلزا عن البكاء ، وأوقف ذوبان كحل عينيها ونحيب ذلك الأمريكى . فاندفعت أقول :

- لم يقل كل شيء بعد يا إلزا ، تعالى الآن نعود إلى المنزل .

فأجابت وهي تنشج :

- سأعود فيما بعد لأخذ حقائبي . وداعاً ياسيسيل . . لقد كنا متفقتين .

ولم أكن قد تحدثت إليها أبداً في غير ما يتعلق بالأزياء أو الطقس ، ومع ذلك فقد خيل إلى أنني أفقد صديقة قديمة . وفجأة درت علي عقبى وجريت إلى العربية .

ذلك .. بضعة كؤوس منكودة .. لطمة ونحيب ؟! ونظفت أسناني
ثم هبطت .

وكان أبي وآن يجلسان في (التراس) ، متجاورين أمام مائدة
الإفطار ، فألقيت إليهما بتحية صباح مبهمة ثم جلست في مواجهتهما ،
دون أن أجرؤ - حياء - على التطلع إليهما . غير أن صمتهما لم يلبث
أن اضطرني إلى رفع عيني .. لأرى ملاح آن المجعدة ، الأثر الوحيد
لليلة غرام ! كانا يبتسمان .. ترسم على وجهيهما مظاهر السعادة .
وهزني ذلك ، فقد بدت لي السعادة دائما نو كيدا وانتصارا .

ولم يلبث أبي أن تساءل :

- نمت جيدا ؟

فأجبته :

- ليس تماما ، فقد احتسيت كثيرا من الويسكي عشية أمس .
ثم سكبت لنفسى قدحا من القهوة وتذوقتها . ولكنني كنت
أشد تعباً من أن أتحمل طويلا ما وراء صمتهما من تحفز ، فلم
ألبث أن وضعت القدح وأنا أتساءل :

- ماذا حدث ؟ إن لكما مظهرا غامضا .

فأشعل أبي لفافة في حركة اجتهد أن تبدو ثابتة ، على حين
راحت آن تتطلع إليّ في حيرة ، للمرة الأولى ، قبل أن تجمع أمرها
وتقول :

- أريد أن أسألك أمرا .

كان صباح اليوم التالي أليما ، بفضل ما احتسيت في الملهى من
ويسكي ولا شك .. صحوت في العتمة لأجدني مستعرضة فراشي ،
أحس ثقلا في شفتي ورطوبة غير محتملة تبلل أعضائي . ولم أكن
أحس رغبة في النهوض أو في البقاء ، فرحت أراقب صفوفاً
متلاصقة من الغبار ، تسبح مصعدة في أشعة الشمس المنحدرة خلال
شقوق النافذة ، وأنا أسأئل نفسي عن منظر سحنتي أبي وآن فيما
لو عادت إلزا هذا الصباح ، وأدفع نفسي إلى التفكير فيهما حتى
أنهض دون أن أحس ما أبذل من جهد . وأخيراً بلغت ما أريد ،
ووجدتني فوق بلاط الغرفة الرطب .. سأمانة يدور بي الفضاء .
وكانت المرأة تعكس خيالا حزينا ، فملت أنامل عينين مشدودتين ،
وفما متورما : كان ذلك الوجه الغريب وجهي ! ترى أكان ضعفي
وخوري بسبب تلك الشفة ، وتلك السمات ، وتلك الحدود البغيضة
التعسفية ؟ وإذا كنت محدودة الطاقة حقاً ، فكيف تأتى أن
أعرف ذلك بطريقة واضحة ومضادة لذاتي ، إلى هذا الحد ؟
وألهيت نفسي بابغاض وجه الذئب هذا ، الذي غضنه الفساد
وأذبله . ورحت أردد كلمة « الفساد » في مرارة ، وأنا أنفوس في
عيني خيالي . وخجاة رأيتني أبتسم : أى فساد ، في الحقيقة ، كان

فقدرت أسوأ الفروض وتساءلت :

- مهمة جديدة تتعلق بالزنا ؟

فتلفتت توميء إلى أبي وتقول :

- زيد ، أبوك وأنا ، أن نتزوج .

فجعلت أحلق فيها ، ثم لم ألبث أن تحولات إلى أبي . ومضت دقيقة وأنا أنتظر منه إشارة ما ، أو غمزة عين ، تغضبني وتريحني في نفس الوقت غير أنه راح يتشاغل بتأمل يديه ، فقلت أحدث نفسي : « إن هذا غير ممكن . . . » . ولكنني ، في الواقع ، كنت أعرف أنه حقيقي .

وقلت لا أكتسب الوقت :

- إنها فكرت طيبة .

بيد أنني كنت عاجزة عن الفهم : أبي ، عدو الزواج العنيد ، يغير رأيه هكذا . . في ليلة واحدة ! كان ذلك حريا أن يغير حياتنا كلها ، ويفقدنا استقلالنا . وتخيلت حياتنا نحن الثلاثة ، وقد أحالها ذكاء آن ورقتها ، على حين فجأة ، حياة مترنة . تلك الحياة التي كنت أحسدها عليها : أصدقاء أذكيا ، ظرفاء ، وسهرات سعيدة هادئة . وإذ بي فجأة أبغض السهرات الصاخبة ، وأمريكي الجنوب والألوات ! ثم لم يلبث أن غمرني إحساس بالسيادة والكبرياء ، وعدت أردد وأنا أبتسم :

- فكرة طيبة ، طيبة جدا .

وعندئذ هتف أبي :

- قطعتي الصغيرة ، لقد كنت أعرف أنك ستكونين راضية .

كان مسترخيا سعيدا . وكان وجه آن ، وقد أرهقه الغرام ، يبدو أكثر ترحيبا وأعظم رقة مما كنت قد شاهدته أبدا .

واستأنف أبي وهو يمد يديه الاثنتين ويجذبني إلى ما بينه

وبين آن :

- تعالى هنا يا قطعتي .

ثم راحا يتطلعان إليّ في حنان وأنا نصف راكدة أمامهما ، ويمسحان على شعري . غير أنه لم يكن في وسعي أن أمتنع عن التفكير في أنه على الرغم من أن حياتي كانت تتحول ، ربما في تلك اللحظة بالذات ، فأنني لم أكن بالنسبة إليهما في الواقع سوى قطعة . .

حيوان صغير ودود ، كنت أحسهما يعلوانني ، مرتبطين بماض وبمستقبل ، وبروابط أخرى لأعرفها . . ولا تمتد إليّ . ومع ذلك فقد أغلقت عينيّ في ثان ، ورحت أؤدي دوري . . مسندة رأسي إلى ركبتيهما ، متضاحكة . أو لم أكن سعيدة ؟ لقد كانت آن عظيمة البربي ، ولم أكن أعرف لها دناءة قط . ولسوف توجهنني وترفع عني المسؤولية ، وترشدني دائما إلى الطريق الواجب الاتباع . ولسوف تجعل مني ، ومن أبي أيضا ، مثالا للأخلاق الحميدة ؟

وقام أبي يحضر زجاجة شبنانيا ، وتركني في هم . لقد كان سعيدا . . وذلك هو المهم ، ولكنني كنت قد رأيته مرارا عديدة سعيدا . . بسبب امرأة .

وقالت آن بعد قليل :

- لقد كنت أوجس منك بعض الشيء .

وكانت كلماتها توحى بأن اعتراضه كان كفيلا بوقف

زواج بالغين ، فسألتها :

— لم ؟

فأجابت وهي تضحك :

— كنت أخاف أن تكونى موجهة منى بعض الشيء . وجعلت أضحك بدورى ، فقد كنت حقيقة أوجس منها بعض الشيء . ولقد أرادتني أن أدرك أنها كانت تعرف ذلك ، وأنه كان بلا داع .

ولم تلبث أن تساءلت :

— ألا يبدو لك زواج عجوزين مثلنا ، مضحكا ؟

ولمحت أبى ، فى تلك اللحظة ، عائدا يتبختر والزجاجة بين ذراعيه ، فقلت فى اقتناع كامل :

— لستما بالعجوزين .

وجلس أبى إلى جوارها وأحاط كتفها بذراعه ، فالت إليه بطريقة جعلتنى أغض من بصرى . لهذا بلا شك كانت تزوجه : لا بتسامته ، لذراعه الصلبة المطمئنة ، ولحيويته ودفئه . وفى الأربعين .. ربما كان الخوف من الوحدة ، أو لعلها آخر فورات الغريزة ! ولم أكن قد فكرت فى آن أبدا كامرأة ، بل كشخصية . كنت أرى فيها الثقة بالنفس والأناقة والذكاء ، ولكننى لم ألحظ أبدا ضعفا أو شهوانية . وكنت أدرك تماما أن أبى يحس الزهو : المزهوة غير المكترثة آن لارسن .. كانت ستزوجه ! هل كان يحبها ؟ هل كان فى إمكانه أن يحبها طويلا ؟ هل كان هناك من فارق بين حنانه هذا ، وما كان يبديه نحو إلزا ؟ وبدأت الشمس تدير رأسى ، فأغلقت عيني ، وجلستنا هناك فى (التراس) ، تستغرق ثلاثتنا أسرار ومخاوف خفية ، وسعادة .

ولم تعد إلزا ذلك اليوم . ومضى الأسبوع سريعا جدا ، سبعة أيام ممتعة سعيدة .. الوحيدة ، شغلنا خلالها بوضع خطط تأثيث معقدة ، وبراج .. كنا - أبى وأنا - فى جهالة غير المجربين ، نجد لذة فى أن نجعلها كثيرة مرهقة . ولكن ، هل آمنا بذلك لحظة واحدة ؟ العودة للغداء فى منتصف الساعة الواحدة كل يوم فى نفس المكان .. تناول الغداء فى المنزل .. ثم البقاء فيه . هل كان أبى يعتقد أن ذلك فى الإمكان حقا ؟ لقد كان مرحا ، على أى حال ، وهو يستعد لهجران حياته البوهيمية ، ويبشر بالنظام ممتدحا ما فى الحياة البرجوازية من تهذيب وترتيب . غير أن تلك الخطط والبرامج لم تكن بطبيعة الحال ، بالنسبة إليه وإلى ، سوى قصور فى الهواء .

وإنى لأحتفظ من ذلك الأسبوع بذكرى ، يلد لي الآن أن أنبشها لأمتحن نفسى . كانت آن مسترخية مطمئنة ، على قدر كبير من الرقة ، وكان أبى مشغوقا بها ، أشاهدهما يهبطان فى الصباح بعيون مظلمة ، متخاصرين يتبادلان الضحكات . وأقسم أننى كنت أتمنى لو يدوم ذلك طوال الحياة . وفى المساء ، غالبا ما كنا نهبط إلى الساحل لتناول فاتحات الشهية فى شرفة إحدى المقاهى ، حيث نعامل كأُسرة متحدة عادية .

وإذ كنت معتادة على الخروج مع أبى وحدنا ، لأجمع بسبات ونظرات الخبث . . أو الإشفاق ، فقد فرحت بالعودة إلى أداء دور يلائم عمرى . وكان من المفروض أن يتم الزواج فى باريس بعد عودتنا ..

لم يكن سيريل المسكين قد تقبل تحولنا هذا ، دون دهشة ما .

ولكنه ، على أى حال ، كان سعيداً بتلك النهاية الشرعية . وكنا لا نزال ننطلق سوياً في قاربه ، حيث نتعاقب على هوانا . وكان يحدث أحياناً ، بينما هو مطبق بفمه على فمي ، أن يرتسم أمام عيني وجه آن . . . وجه الصباح المرهق السمات ، العذب ، وتترأى لي ملامح مما يثقل به الغرام حركاتها من تراخ وكسل سعيد ، فأحسدها ! وسرعان ما كانت القبل تعجز عن إروائي ! فلو أن سيريل كان أقل حبالي لصرت بلا شك عشيقته . . . قبل أن ينتهي ذلك الأسبوع .

كان سيريل يسحب القارب فوق الرمال ، عند عودتنا من الجزر في الساعة السادسة ، ثم يقودني إلى المنزل خلال غابة الصنوبر حيث نبتدع ألعاباً هندية ، أو نتسابق طلباً للدف . . . وكان يلحق بي دائماً قبيل المنزل ، وينقض عليّ وهو يطلق صيحة النصر ، ثم يدحرجني فوق أوراق الصنوبر ، ويكتفني ويروح يقبلني . وما زلت أذكر طعم تلك القبلات اللاهثة غير الفعالة ، وضجيج قلب سيريل الملتصق بصدرى . . . في انسجام تام مع تتابع الأمواج فوق الرمال . . . واحد اثنان ثلاثة . . . أربع ضربات ، ثم الوشوشة الخافتة فوق الرمال ، واحد اثنان ثلاثة . . . واحد . وقليل ، قليلاً ، كان يسرد أنفاسه فتعود قبلاته دقيقة عنيقة ، ولا أعود أسمع هدير البحر بل خطو دمائي السريع المتتابع ، في أذني .

وذات مساء . . . فرق بيننا صوت آن . وكان سيريل يرقد إلى جوارى في ضوء الغروب المشبع بالحمرة والظلال ، وقد تخففنا من ملابسنا ، فأدركت أن وضعنا هذا قمين بأن يندع آن . وقفز

سيريل واقفاً عندما نادتنى آن في حزم ، خجلاً بطبيعة الحال . وقت بدورى ولكن في بطن ، وأنا أنظر إلى آن التي كانت قد تحولت إلى سيريل ، تطلع إليه في شرود وتحدثه في صوت خافت :
- أحسب أنني لن أراك ثانية .

ولم يجب سيريل ، بل مال على يقبل كتفي قبل أن يبتعد . وأدهشتني تلك الحركة ، وهزتي . . . كعهد . وكانت آن قد استدارت تحملي في بنفس النظرة الحادة الشاردة ، وكأنما تفكر في شيء آخر . .

وغاظني ذلك : إذا كانت مشغولة الفكر بشيء آخر ، فلماذا تكلمت عليّ الإطلاق ؟ وتقدمت مني في أدب خالص ، تعلوني مظاهر الخجل . . فبدا عليها كأنما تنهت لوجودي ، ومدت يدها في حركة آلية لترفع من فوق كتفي ورقة صنوبر . ولم يلبث وجهها أن استعاد قناع الاحتقار ، الجميل : ذلك السميت الملول المتعالي ، الذي كان يهبها جمالاً ملحوظاً ، ويبعث في دائماً بعض الخوف . وأخيراً تكلمت :
- يجب أن تعلمي أن هذا النوع من التسنية ينتهي عادة في

مستشفى !

وكانت تتكلم وهي تواجهني وقد استقرت نظراتها على عيني ، على حين كنت أقاسي أشد الخجل . كانت من أولئك النسوة القادرات على الكلام في ثبات تام ، أما أنا فكنت أحتاج دائماً إلى مقعد ، أو شيء ما أمسك به . . . كلفافة ، أو التلوي بأرجحة ساق فوق الأخرى ومراقبتها وهي تتأرجح .

وابتسمت وأنا أجيها :

- لاداعي للمبالغة . لقد قبلته ليس إلا ، ولن يستدعي ذلك
ذهابي إلى المستشفى :

فعادت تقول ، وكأنما لا تصدقني :

- أرجو ألا تعودى إلى رؤيته . ولا تعترضى : إنك فى السابعة
عشرة ، وإننى لمسئلة عنك بعض الشيء فى الوقت الحاضر .. ولن
أدعك تفسدين حياتك . ثم أن لديك عملاً يؤدى ، على أى حال ،
وسيشغل ذلك أمسياتك .

ثم أدارت لى ظهرها وسعت إلى المنزل فى خطوها المتكاسل ،
تاركة إياى للذهول بشتى إلى الأرض . لقد كانت تعنى كل ما تقول ،
فلم يكن من داع للمحاجة والإنكار ، مادامت ستستمع إليها بذلك
النوع من البرود .. الأنكى من الاحتقار . وكأنما ليس لى وجود ،
أو كأنما أنا شيء بوطأ ، ولست أنا نفسى ، سيسيل ، التى عرفتها
دائماً . ولم يعد لى من أمل سوى أبى الذى كان ينبغى أن يقول
كعادته : « من يكون ذلك الفتى يا قطى ؟ لعله جميل على الأقل
وسليم ! ولكن .. إحدري الذئاب يا صغيرتى » .. كان ينبغى
أن يقول شيئاً فى هذا المعنى ، أو تكون نهاية أجازتى . *

ومضى العشاء ككابوس . ولم تحاول آن أن تسر إلى :
« لم أقل لأبيك شيئاً ، فلست بنامة . ولكنك ستعدينى بأن تعملى
جادة ! » . لم تكن المساومة من طبيعتها ، الأمر الذى كنت أهنى .
به نفسى ، وأحقد عليها بسببه .. إذ لو أنها ساومتنى لأتاحت لى فرصة
احتقارها ! ولكنها تحاشت تلك الخطوة الخاطئة ، كعادتها .
وبدا كأنما قد نسبت الحادث ، حتى إذا ما انتهينا من تناول الحساء
قالت فجأة تحدث أبى :

- أود أن توجه إلى ابنتك بعض النصائح .. ياريمون . لقد
وجدتها هذا المساء فى غابة الصنوبر مع سيريل ، يبدو عليهما
الانسجام التام .

وحاول أبى المسكين أن يأخذ الأمر مأخذ الفكاهة ، فتساءل :
- ما هذا الذى تقولين ؟ ماذا كانا يصنعان ؟ !
وصحت فى حدة :

- كنت أقبل سيريل ، فظنت آن ..

ولكنها قاطعتنى :

- لم أظن شيئاً على الإطلاق ، غير أننى أعتقد أنه يكون من
الأفضل لو تكف عن رؤيته بعض الوقت .. وتشتغل قليلاً فى
فلسفتها .

فقال أبى :

- الصغيرة المسكينة ! سيريل هذا فتى رقيق على أى حال ..
أليس كذلك ؟
غير أنها أجابته :

- وسيسيل أيضاً فتاة رقيقة ، ولذا يسوءنى أن تتعرض لحادث
ما . ومادمت قد تركت لها الحرية هكذا لتنتقل مع ذلك الفتى ..
فإن الأمر يبدو لى ، مع بطاتهما ، محتملاً . ألا توافقنى ؟

ورفعت عيني عند سماع تساؤلها ، على حين أرخى أبى عينيه
فى حرج شديد .. ثم لم يلبث قال :

- إنك على صواب بلا شك . نعم ، ينبغى على أى حال أن تعملى
قليلاً ياسيسيل . ولا أظنك راغبة بحال فى فشل ثانٍ يحتم

عليك إعادة الفلسفة ..

بيد أنني أجبتة متدة :

- أو تظنني أهتم ؟

فرفع عينيه إليّ ، ثم لم يلبث أن أشاح بوجهه بعيداً واستولى على الاضطراب ، فقد أدركت أن عدم المبالاة يستطيع أن يلهم حياتنا .. غير أنه لا يهيئ لنا أية حجة في الدفاع عنها .

وقالت آن وهي تمسك يدي عبر المائدة :

- اسمعي . ستستبدلين بشخصية فتاة الغابة شخصية طالبة

مجدة .. لمدة شهر واحد ليس إلا ، ولا أظن ذلك بالأمر الخطير ..

ألبس كذلك ؟

وراحا يتطلعان إليّ ، وهما يتسمان في مودة : كانت الحجة

واضحة ! ومع ذلك ، فقد سحبت يدي في هدوء وأنا أقول :

- نعم .. إنه خطير جداً !

قلت ذلك في صوت خافت ، حتى أنهما لم يسمعاني ، أولعهما لم

يريدا أن يسمعاني !

ووجدتني ، صباح اليوم التالي ، أواجه عبارة برجسن .. استغرق

مني فهمها دقائق طويلة : « مهما وجد ، أول الأمر ، من تباين بين

الوقائع والسبب ، ومهما عزت قاعدة إثبات جوهر الأشياء ، فانه

بملاسة قوة الحياة المولدة يستطيع المرء دائماً أن يغترف القدرة على حب

* برنامج يدرس فيه علم النفس والأخلاق والمنطق ، وعلم ما وراء الطبيعة .

الإنسانية ! .. رحت أتلوها في صوت منخفض ، أول الأمر ، حتى

لا أرهق أعصابي ، ثم لم يلبث صوتي أن ارتفع ، ورحت أتأملها

وقد أمسكت رأسي بين يدي ١ وأخيراً فهمتها .. ومع ذلك

فلم أزل أحس نفسي باردة عاجزة كما كنت عند قراءتها أول مرة .

ووجدتني عاجزة عن الاستمرار في القراءة ، إلا أنني رحت أحاول

معالجة السطور التالية في جد واجتهاد . وفجأة انطلق شيء ما في

داخلي .. كعاصفة ، ورماني في فراشي . وجعلت أفكر في

سيريل وهو ينتظرني في الخليج الذهبي ، وفي أرجحة القارب

الناعمة .. وطعم قبلاننا . وفكرت في آن أيضاً ، ولكن بطريقة

جعلتني أقفز جالسة في الفراش وقلبي يدق ، لأقول لنفسي إن ذلك

غباء مني ووحشية ، وأنني لست سوى طفلة مدللة كسولة ، وإنه

ما كان يحق لي أن أفكر فيها بهذه الطريقة . غير أنني استأنفت

التفكير رغماً عني ، التفكير في أنها مؤذية وخطرة ، وأن من

الضروري إبعادها عن طريقنا . وجعلت أذكر في غيظ مادار على

مائدة الإفطار التي غادرتها منذ قليل متفرحة النفس ، يعذبني شعور

بالحق .. أحترق ذاتي إذ تحسه وأهزأ بها .

نعم .. ذلك هو ما كنت آخذه على آن : كانت تحول بيني

وبين الإعجاب بنفسي ، فقد كنت - أنا المهيأة طبيعياً للسعادة -

أنحدر بسببها إلى دنيا من الملام والشعور بالإثم . وإذا كنت

عديمة الخبرة بفحص الضمير ، فقد كنت أفقد ذاتي تماماً . وأي

خير كانت تقدم لي ؟ لقد أرادت أبي فكان لها ، وكانت تصنع منا

بالتدريج .. زوج وابنة زوج آن لارسن ، وذلك يعني تحولنا إلى

مخلوقين مهذبين ، مؤدبين ، وراضيين . . إذلاشك في أنها ستحسن معاملتنا . ولسوف نستسلم لتأثيرها سريعاً ، نحن المتقلبين غير المقدرين للمسؤولية ، ونألف نهجها المنظم في الحياة . لقد كانت عظيمة التأثير حقاً ، وكان أبي قد انفصل عني فعلاً . . وصار يشيح بوجهه في حرج كلما جمعتنا مائدة الطعام .

وذكرت ، والدموع تترقرق في عيني ، مشار كاتنا التليدة ، وضحكنا ونحن عائدون في العربة ، مع الفجر ، خلال طرقات باريس البيضاء . كان ذلك كله قد انتهى ، فلسوف أستجيب بدوري لتأثيرها ، وأخضع لآرائها وتوجيهاتها . وسيتم ذلك دون أن أقاسي أو أهتم : ستعالجني في ذكاء ، وبشاشة ورقة بلاشك ، ولن يكون في استطاعتي أن أقاومها . بل ولن تمضي ستة أشهر إلا وأكون غير راغبة في مقاومتها !

كان من الحتم إذن أن أعمل على إنقاذ نفسي ، واسترجاع أبي وحياتنا السابقة . وكم بدت جميلة رائعة ذكريات تلكا السنتين الرائعتين . . اللتين قضيتهما معه ، تلك الذكريات التي كنت على استعداد للتنازل عنها في ذلك اليوم . . منذ أسبوع : حرية التفكير ، وإساءة التفكير . . أو عدم التفكير على الإطلاق ؛ حريق في اختيار حياتي بنفسى . . واختيار نفسي ، ولا أستطيع أن أقول « حريق في أن أكون أنا نفسي » ، فقد كنت لا أزال في الواقع عجيبة لينة ، عجيبة تأبى أن تشكل !

وإنني لأدرك أنه من الممكن تلمس بواعت معقدة لتلك الثورة في داخلي ، ونسبتها إلى عقد نفسية خطيرة : حب مريض . . لأبي ،

أو عاطفة غير سليمة نحو آن . ولكنني أعرف أن الأسباب الحقيقية كانت الحرارة وبرجسن وسيريل ، أو علي وجه التحديد . . غياب سيريل !

وهكذا استمرت أفكارى طوال الأمسية ، تختلف أشكالها ولكنها تنبثق جميعاً من هذا الاكتشاف : أننا كنا تحت رحمة آن ! وإذا كنت غير معتادة على التفكير فقد هاجنى ذلك وأجهدنى .

وجلست إلى مائدة العشاء بفم مطبق ، كما حدث في الصباح . ووجد أبي من واجبه أن يداعبني ، فقال :

- إنما يعجبني في الشباب انطلاقه وأحاديثه المرحية .

فتطلعت إليه وأنا أنتفض غضباً . لقد كان حبه للشباب حقيقياً ، ومع من تراني كنت مستطية أن أتحدث إن لم يكن معه ؟ لقد تحدثنا عن كل شيء : الحب ، والموت ، والموسيقى . . ولكنه هو الذي هجرني ، وألجنى هكذا . وجعلت أفكر وأنا أطلع إليه : « لم تعد تحبني كما في الماضي ! » . وحاولت أن أفهمه ، بغير كلام ، كم كنت يائسة ، فاذبي أستسلم تماماً لحالة هستيرية . . وفجأة بدا عليه الذعر ، ولعله أدرك أن وقت العبث قد فات ، وأن علاقتنا أصبحت في خطر . ورأيته ينتصب ، ويبدو عليه كأنما يوشك أن يقول لي شيئاً . . وفي تلك اللحظة ، استدارت آن نحوي قائلة :

- إنك تبدين ضعيفة ، وإنني لآسف أن جعلتك تعملين .

ولكنني لم أجبه ، فقد كنت أقاسي بغضاً شديداً لنفسى . . بسبب تلك المأساة التي لم يعد في مقدوري أن أسيطر عليها .

وافترقنا بعد تناول العشاء . . ولم ألبث أن لمحت في (التراس) وسط مستطيل الضوء الذي كان ينحدر من غرفة الطعام عبر النافذة ، يد

آن الطويلة النابضة بالحياة .. تتأرجح لتلتقي بيد أبي . وجعلني هذا
المنظر أفكر في سيريل ، وأتمنى لو يأخذني بين ذراعيه .. في هذا
(التراس) المفروش بالصرار وضوء القمر ، فقد كنت في حاجة إلى
المداعبة ، والعزاء ، والصلح مع نفسي . كان أبي وآن يلتحفان
بالصمت ، فقد كانت أمامهما ليلة غرام .. أما أنا فلم يكن ينتظرني
سوى برجسن ! وحاولت دون جدوى أن أبكي وأن أرثي لنفسي ،
حين كنت قد بدأت فعلا أرثي لآن .. وكأنا كنت واثقة من
التغلب عليها !

وبدهشني ابتداء من هذه اللحظة وضوح ذكرياتي . كنت قد
اكتسبت إدراكا أعمق للآخرين ، ولنفسي . ولقد كانت الذاتية ،
هي وأناية سهلة . . طبيعة لي ، هكذا عشت دائما . غير أن أحداث
تلك الأيام القليلة الأخيرة ، كانت قد أقلقتني إلى حد دفعني إلى التفكير ،
والنظر إلى نفسي بعين ناقدة . بيد أنني قاسيت جميع أهوال فحص الضمير ،
ومع ذلك لم أستطع أن أتصالح مع ذاتي . كنت أفكر : « إن هذا
الاحساس نحو آن حقير وغبي ، كما أن تلك الرغبة في فصلها عن
أبي وحشية » . ولكن لماذا ، على أي حال ، كنت أدين نفسي هكذا ؟
أو لم أكن حرة ، وأنا في بساطة . . أنا ، في أن أحس ما كان
يحدث ؟ ولأول مرة في حياتي كانت هذه « أنا » تبدو منقسمة ،
وكان اكتشاف ذلك الازدواج بدهشني إلى أقصى حد . لقد كنت
أجد أعذارا وجيهة ، أهمس بها إلى ذاتي ، وأنا أعتبر نفسي صادقة .
ونجاة كانت تنتصب « أنا » أخرى . . تطعن في جميع حججي
بالتزوير ، وتهمني بأنني أخدع بها ذاتي . . رغم جميع
مظاهر الحقيقة التي لها . ولكن ، ألم تكن هذه « أنا » الأخرى
هي التي تخدعني في الحقيقة ؟ وهذا الواضح ، ألم يكن أشنع خطائي ؟
كنت أقضي ساعات بأكملها في غرفتي ، أجادل نفسي لأعرف إن كان

لما تشيره آن في نفسى من خوف وعداء .. ما يبرره ، أو أننى لم أكن سوى فتاة مدللة ، على حظ من الحرية الزائفة . وفي هذه الأثناء رحت أزداد نحولا من يوم إلى آخر ، وإن لم يكن لى من نشاط سوى النوم على الشاطئ ، والاستسلام للوجوم خلال الوجبات .. إلى حد إحراج أبى وآت .

بيد أننى لم أكف عن مراقبة آن ، طوال الوقت ، والتربص بها .. فإذا ما ، جمعنا مائدة الطعام رحت أنساءل : « هذه الحركة التى بدرت منها نحو أبى .. أوليست دليل غرام لا مثيل له ؟ وهذه الابتسامة الموجهة إلى ، ولحمة القلق فى عينيها .. كيف يمكن أن تغضبانى ؟ » . ولكنها كانت تقول فجأة : « عند ما نعود ، ياريمون .. » ، وعندئذ كانت فكرة مقاسمتها حياتنا والتدخل فيها تثيرنى من جديد ، فلا يعود يبدو لى منها سوى حذق وبرود ، وأجيب نفسى : « إنها باردة ، أما نحن فالحمية طبعنا ، إنها مستبدة ، أما نحن فبسطاء ، إنها غير مكترثة : الناس لا تثير اهتمامها ، على حين تستهويننا بخالطهم . إنها متحفظة أما نحن فننطلقون . وها نحن نتأجج حيوية ، ولسوف نترلق بيننا بهدونها وتمتص بالتدريج دفئنا وخلو البال ، لسوف تسلبنا كل شئ .. . كأفعى جميلة . ثم أروح أردد : « أفعى جميلة أفعى جميلة » ، ثم .. ثم تناولنى الخبز ، فأفبق لأصرخ فى نفسى : « ولكن هذا جنون ، إنها آن ، الذكية آن ، آن التى طالما رعتك واعتنت بك . إن برودها هو طريقته فى الحياة ، وليس فيه ما تؤاخذ عليه ، أما تحفظها فهو يجنبها آلاف الدنايا الصغيرة .. إنه دليل عظمة » . وأحس نفسى أشعب من الخجل وأنا أطلع إليها فى تضرع

صامت ، طالبة عفوها . وفى بعض الأحيان كانت تلاحظ ذلك التعبير فى نظراتى ، فتظلل الدهشة والريبة وجهها ، وتبتزان عباراتها . وتلجأ بعينها القلقتين ، غريزيا ، إلى أبى الذى يروح بتطالع إليها بنظرات ملئها الإعجاب أو الرغبة ، دون أن يدرك سبب ذلك القلق . وفى النهاية كنت أحيى الجو خائفا ، فأبغض نفسى .

وكان أبى يقاسى .. بقدر ما كانت تسمح طبيعته ، وذلك يعنى قليلا جدا ! فقد كان مشغوبا بآن ، شديد الفخر متناهي السعادة ، ولم يكن يحيا لغير ذلك .

وذات يوم ، بينما كنت أغفو على الشاطئ . إثر حمام الصباح ، جالس إلى جوارى وراح يتأملنى .. حتى أحسست نظراته فوق جسدى . وكنت على وشك أن أدعوه إلى المياه ، فى ابتهاج مزيف كان يتحول سريعا إلى عادة ، عند ما وضع يده فوق رأسى ورفع صوته مناديا آن فى لهجة مشفقة :

- آن .. تعالى انظرى هذه الجرادة ، لقد نحلت تماما . لو كان هذا هو تأثير العمل عليها ، لوجب أن تكف !

كان يحسب أنه يسوى بذلك كل شئ ، ولا شك أنه كان مستطيعا أن يفعل ذلك .. عشرة أيام من قبل ! ولكننى كنت قد توغلت بعيدا بين العقد ، فى ذلك الوقت ، ولم تعد ساعات العمل خلال الأمسيات تضايقنى .. خاصة وأننى لم أكن قد فتحت كتابا بعد برجسن ! وأقبلت آن ، ولكننى بقيت راقدة على بطني فوق الرمال ، أصغى إلى وقع خطوها المكتوم . وجلست إلى جانبي الآخر ثم همست :

- لا شك فى أن ذلك يبدو غير ملائم لها . ولكن ، لو أنها

تؤدي بالفعل بعض العمل بدلا من أن تذرع غرفتها !

و كنت قد استدرت إليهما ، فرحت أعجب كيف عرفت أنني لم أكن أدرس .. بيد أنني لم ألبث أن رجحت أنها استطاعت قراءة أفكارى ، فقد كنت أعتقد أنها قادرة على كل شيء ! وأفزعتنى تلك الفكرة فاعترضت :

- إننى لا أذرع غرفتى !

فسأل أبى :

- أهو ذلك الفتى .. الذى ينقصك إذن ؟

- لا !

ولم يكن ذلك بالحقيقة تماما ، غير أنه لم يكن لدى فى الواقع وقت للتفكير فى سيرىل ! ولم يلبث أبى أن استأنف فى حزم :

- ولكنك لا تتمتعين بصحة جيدة . آن ، هل ترينها ؟ إنها تبدو كدجاجة صغيرة أفرغت أمعاءها ثم وضعت فى الشمس لتشوى .

فقلت آن :

- عزيزتى سيسيل .. أبذل بعض الجهد . اعملى قليلا ، وكلى كثيرا ،

فهذا الامتحان هام ..

فصرخت :

- سحقا للامتحان ! هل تفهين ؟ سحقا له !

قلت ذلك مستبشرة وأنا أنظر إليها ، فى الوجه تماما ، لتفهم أن الأمر كان أخطر من مجرد امتحان ! ورحت أنتظر بعد ذلك أن تسألنى : « حسنا ، ما الخبر ؟ » ، ثم تمنظرنى بوابل من الأسئلة وترغمنى على أن أحدثها بكل شيء ، وعندئذ تتغلب على وتفعل بى ما تريد ..

فلا تعود تغمرنى تلك الأحاسيس اللاذعة الميئسة . ولكنها لم تقل أو تفعل شيئا ، بل راحت تتطلع إلى فى انتباه .. ورأيت أزرق عينيها الداكن يعتم بالتركيز والتأنيب . وسرعان ما أدركت أنها لن تفكر فى سؤالى وإنقاذى ، إذ حتى لو خطر ذلك ببالها لحالت دونه طبيعتها ! لقد كانت خالية البال تماما عما يعصف بروحى ، وحتى لو أنها أدركت ما بى لتراجعت فى ازدراء وبرود .. أستحقهما تماما ! كانت تعطينى كل أمر قيمته الحقيقية ، ولذلك لم يكن فى إمكانى أبدا .. أبدا ، أن أتفاهم معها .

وألقيت بنفسى ثانية فوق الرمال ، وأسندت خدى إلى دفتها الناعم ، وتهدت .. ثم بدأت أرتعش . وإذا ذلك استقرت يد آن ، هادئة ثابتة ، فوق عنق ، ومنعتني عن الحركة لحظة .. حتى توقفت رعشتى العصبية . ثم لم تلبث أن قالت :

- لا تعقدى حياتك . لقد كنت دائما عظيمة الرضى كثيرة الحركة .. لا هم لك ، وها قد صرت حزينة تدمنين التفكير .

فأجبتها فى سخرية مريرة :

- أعرف أنني مخلوق عديم التفكير ، يتمتع بصحة جيدة وبفيض مرحة وبلاهة !

فلم ترد عن أن قالت :

- هيا تناول الغداء .

وكان أبى قد ابتعد ، إذ كان يكره ذلك النوع من المناقشات . وإذا لحقت به فى الطريق ، تناول يدي واحتفظ بها فى يده القوية المشجعة ،

اليدي التي مخطتني عند ما أصابني أشجان الغرام الأولى، واحتضنت يدي في لحظات الهدوء والسعادة التامة، وأطبقت عليها ونحن نتأمل أو نضحك في جنون. ورحت أفكر في تلك اليد وهي فوق عجلة القيادة، أو ممسكة بمفتاح الباب بالليل، تحاول عبثا أن تعثر على القفل.. وهي فوق كتف امرأة، أو ممسكة بلفافة، تلك اليد ذاتها.. لم تعد مستطاعة أن تفعل من أجل شيئا. وضغطت عليها في شدة، فالتفت إلى وابتسم..

٨

ومضي يومان وأنا أدير دور في حلقة مفرغة، وأنهاك نفسي. ولكنني لم أكن مستطاعة أن أتخلص من تلك الفكرة المتسلطة علي: أن علي وشك أن تحطم حياتنا. ولم أكن أحاول أن ألقى سيريل: كان في إمكانه أن يفرج عني ويذيقني بعض السعادة، غير أنني لم أكن أرغب في ذلك. بل وكنت أجد بعض المتعة في مواجهة نفسي بأسئلة لا جواب عليها، واجترار الأحداث الماضية، وخشية ما ستأتي به الأيام. وكان الجو شديد الحرارة، فاضطرت إلى إبقاء غرفتي في عتمة مستمرة، إلا أن ذلك لم يكن كافيا لمنع ما في الهواء من ثقل، ورطوبة غير محتملة. ودأبت على الرقاد في الفراش والجملة في السقف، لا أكاد أتحرك إلا بحثا عن رقعة رطبة.. فإذا ما استعصى علي النوم، رحلت أدير فوق (البيكاب) المجاور لفراشي تسجيلات لموسيقى بطيئة الإيقاع، وأكثر من التدخين متلذذة بما أحس من انحلال. والسكن ألعوبة التظاهر هذه لم تكن كافية لخداعي، فقد كنت حزينة مرتبكة.

وذات أمسية طرقت الخادم بابي وأعلنتني بطريقة ملتوية أن.. «هناك من ينتظر»، فانصرف ذهني في الحال إلى سيريل. وهبطت، غير أنني لم أجد سيريل بل إلزا. وحيثني إلزا في حرارة، فلما رحلت أنطلع إليها أدهشني جمالها.. الجديد. كانت الشمس قد

لوحتها أخيراً بسمرة هادئة منتظمة ، وكانت تبدو رائعة الزينة يانعة الشباب . وسارعت تقول :

- لقد أنيت لأخذ حقائبي ، فقد اشترى لي جوان بعض الثياب ..
ولسكنها غير كافية .

وتساءلت لحظة عن يكون جوان هذا ، غير أنني لم ألبث أن كنفقت .. فقد بعثت رؤية إلزا في نفسى نوعاً من السرور : كانت تذكرني بما يحيط بها من طابع المحظيات ، وجو البارات والسهرات السهلة ، بتلك الأيام .. السعيدة . وإذا عبرت لها عما أحس من سعادة لرؤيتها ثانية .. راحت تؤكد لي أننا كنا دائماً على وفاق ، لما بيننا من أوجه شبه . واقترحت عليها ، وأنا أتمد رعشة خفيفة سرت في جسدي ، أن نصعد إلى غرفتي لتتفادى لقاء أبي وأن . ولم تستطع عندما ذكرت أبي ، أن تحول بين رأسها وبين انتفاضة خفيفة جعلتني أفكر في أنها ربما كانت لا تزال تحبه .. على الرغم من جوان وثيابه ! وأحدث نفسي بأنني ما كنت لأتنبه لمثلها ، ثلاثة أسابيع من قبل .

وفي غرفتي رحت أستمع إليها ، وهي تتحدث في حماس عما تفيض به حياتها الجديدة من متع ونشوة ، فبدأت أحس أفكاراً عجيبية تتحرك في ذهني .. ولا شك أن هياتها الجديدة شاركت في استثارة تلك الأفكار . وأخيراً سكنت من تلقاء ذاتها ، ولعل صمتي كان سبباً في ذلك . وسارت عبر الغرفة خطوات قليلة ، ثم تساءلت فجأة دون أن تدبر رأسها : « هل هو سعيد ؟ » وأحسست أنني على وشك الإقدام على شيء ما ،

وأدركت السبب في الحال . كانت عشرات من الخطط والمشاريع تموج وتشكل في رأسي ، وكنت أحس أنني أستسلم لضغط حججي وإلحاحها . وسرعان ما اهتديت إلى ينبغي لي أن أقول ، واندفعت أجيبها :

- من المغالاة أن نقول « سعيداً » ، فالحقيقة أن آن لا تترك له الفرصة ليعتقد غير ذلك . إنها غاية في المهارة !
فتنهدت وهي تقول :

- جداً .. جداً !
واستأنفت على الفور :
- ولن يمكنك أن تتصورى ما دفعته إليه . إنها ستتزوج !
فاستدارت إلى بوجه فزع وهي تصيح :
- تتزوج ؟ ريمون .. يريد الزواج حقيقة ؟
فأجبتها وأنا أغالب رغبة شديدة في الضحك استولت على فجأة ،
وأقوم رعشة سرت في يدي :
- أي نعم ، ريمون سيتزوج ..

وكان من الضروري ألا أتيح لها فرصة لتفكر ، فتدرك أنه قد بلغ عمراً يتحتم عليه فيه أن يتزوج ، وأنه من غير المعقول أن يقضي بقية حياته مع عاهرة ! فملت إلى الأمام قليلاً لأستأنف وأنا أخفض من صوتي لأزيد تأثيراً :

- ينبغي ألا يحدث هذا . لقد أصبح يقاسى ، وتدرकिन جيداً أن ذلك وضع مستحيل ..
فلم ترد عن أن قالت :
- تماماً .

كانت شبه مسحورة بكلماتي .. وزاد ذلك من رغبتي في الضحك ،
وفي الوقت ذاته ضاعف من ارتعاشي . غير أنني تماكنت نفسي
وأكملت :

- إنك الشخص الذي كنت أنتظره ، فليس هناك : من هو أهل
لمقاومة آن غيرك !

فاعترضت ، وكأنا قد ابتلعت الطعام :

- ولسكنه إذا كان يعتزم الزواج بها ، فلا بد وأنه يحبها !
فقلت في جراءة :

- إنه لا يحب سواك ! ولا تحاولي إيهامي أنك تجهلين ذلك .
ولحت جفنيها يدفان ، وهي تستدير لتداري ما بعثت فيها
كلماتي من سرور وأمل . والحقيقة أنني كنت أتصرف وأنا شبه
ثملة ، ومع ذلك كنت أعرف تماما ما ينبغي أن أقول .. ولم ألبث
أن استأنفت :

- ألا ترين ؟ لقد ظلت آن تعريه بالاستقامة وبما في الحياة الزوجية
من هناء ، حتى أمسكت به في النهاية ..

ثم أكملت بعد لحظة وأنا في دهشة مما أقول ، فقد كانت المشاعر
تنبثق في ذهني بطريقة خشنة بدائية ، ومع ذلك كنت أحسن
التعبير منها :

- ولو انهما تزوجا ، فان حياتنا - نحن الثلاثة - ستتحطم .
إلزا ، لا بد من حماية أبي ، إنه طفل كبير ..
ثم أعدت نطق « طفل كبير » بحماس أشد .

وخيل إليّ لحظة أنني قد تماديت قليلا ، ولكنني لم ألبث أن
رأيت عينيّ إلزا الزرقاوين تفيضان بالشفقة .. فأكملت وكأنا
أؤدي دورا مسرحيا :

- ساعديني يا إلزا ! لصالحك ! ولصالح أبي ! ولصالح حبكما
المتبادل !

فتساءلت :

- ولكن ماذا تراني مستطبعة أن أفعل ؟ إنني لا أرى حلا !
فقلت فيما يسمونه الصوت الجريح :

- إذا كنت لا ترين حلا ، فتناسي الأمر كله .

فلم تلبث أن همست :

- يا لها من فاجرة !

فقلت وأنا ألوى وجهي بدوري ، لأداري سروري .

- تلك هي الكلمة !

وفجأة نشطت إلزا ، وراحت أفكارها تتدفق . لقد سخر منها ،
والآن سترى تلك المغامرة .. ما تستطيع إلزا ما كنبرج أن تفعله !
وبطبيعة الحال كان أبي يحبها ، وكانت تعرف ذلك من أول
الأمر ! وحتى وهي مع جوان ، لم تستطع أن تطرد ريمون من أفكارها !

وعند هذا الحد لم أعد أحتملها ، فقاطعتها :

- إلزا ، إنك ستذهبين لمقابلة سيريل عني ، وتسألينه إذا كان
في الإمكان أن تقيمي مع أمه ، إنني واثقة أنه يستطيع تدبر الأمر

معها . قولي له إنني سأتى لمقابلته غدا صباحا ، وسنبحث الأمر
نحن الثلاثة .

ثم أضفت ونحن نقف أمام الباب :

- إلزا إنه مستقبلك الذي تدافعين عنه ..

وتقبلت ذلك جادة ، وكأنما لم يكن أمامها عشرات من
الاحتمالات .. بقدر عدد الرجال الذين يمكن أن يشغفوا بها
فيعولوها . وعند ما شاهدتها تبتعد تحت الشمس في خطواتها الراقصة ،
قلت لنفسى إنه لن يمضى أسبوع حتى يعود أبى راغبا فيها !

وكانت الساعة الثالثة والنصف : لا بد أن أبى كان فى تلك
اللحظة راقداً بين ذراعى آن ، أما هى فلا بد أنها قد استسلمت
لنوم بعد أن غمرتها حرارة اللذة ، فانتشيت .. وأجهدت .
وبدأت من فورى أضع الخطط ، الواحدة بعد الأخرى ، دون أن
أتوقف لأفكر .. وجعلت أذرع غرفتى جيئة وذهابا فيما بين الباب
والنافذة ، وأنا ألي بين الحين والحين نظرة على البحر الهادى .
المنبسط فوق الرمال ، ثم أعود إلى حساب المخاطر ، وتقدير
الاحتمالات ، والقضاء أولا بأول على كل ما يعترضنى من مصاعب
وعقبات . ولم أكن قد أدركت ، من قبل أبداً مدى سرعة انطلاق
أفكارى ومرونتها ، فغمرنى الإحساس بحذقى وخطورتى ، وانحسرت
موجة الاشتزاز التى علتنى عند ما بدأت أحدث إلزا ، ليحل محلها
استمتاع بالزهو ، والتأمر مع الذات ، والوحدانية .

ولكن ذلك كله انهار عندما نزلنا ثلاثتنا إلى المياه ، فما أن رأيت
آن حتى بدأت أنتفض تحت وطأة تأنيب الضمير .. ورحت أبذل قصارى

جهدى لأسكته : جعلت أحمل حقيبتها ، وأجرى إليها حاملة (برنسها)
عند خروجهما من المياه ، وأبالغ فى الانتباه إليها وقول كل ما هو لطيف ،
وأدهشها هذا التغير المفاجئ . بعد صمتى المتواصل خلال الأيام الأخيرة ،
وكاد أن يسعد ها ويرضيها .. أما أبى فكان فعلا فى غاية السرور . وعندما
بدأت آن تبتسم فى وجهي وتجيبنى فى مرح ، تذكرت قول إلزا « يا لها
من فاجرة ! » .. ثم قولي « تلك هى الكلمة ! » ، فجعلت أعجب كيف أمكنتنى
أن أجارى سفاهة إلزا .. وسرعان ما رحت أهمس لنفسى أن لا بد من
أن أقول لها غدا إننى كنت مخطئة ، ثم أنصحها بالرحيل فيعود كل شيء
إلى ما كان عليه . ووجدتنى فى النهاية أتساءل : « وجقا .. لماذا
لا أحاول أن أجتاز الامتحان ؟ إن درجة جامعية فى المستقبل ،
تكون ذات فائدة ولا شك .. »

وجأة سألت آن :

- أليس كذلك ؟ أليس من المفيد أن أحصل على (البكالوريا) ؟
فتطلعت إلى ثم انفجرت تضحك ، وسرعان ما اقتديت بها سعيدة لرؤيتها
مرحة إلى هذا الحد ، فقالت فى دهشة :

- إنك لغريبة الأطوار حقاً !

ولقد كان تصرفى فى الحقيقة شاذاً ، ولكن ماذا تراها كانت
قائلة لو انها عرفت ما كنت أدبر ؟ ! وجأة بدأت ترعانى الرغبة فى
أن أخبرها .. لتعرف إلى أى حد بلغ بى الشذوذ . وأخذت أفكر
فيما كنت حريصة أن أقول لها : « تصورى أننى كنت أدفع إلزا
لتتظاهر بالوقوع فى غرام سيريل ، وأدير أن تقيم معه وتدعنا نراهما سوياً ،
فى القارب والغابة .. وعلى الشاطئ ! لقد عادت إلزا جميلة : ليس
لها جمالك بطبيعة الحال ، إلا أن جمالها من ذلك النوع الذى يدير

ره ووس الرجال ، وإن يستطيع أبى أن يقاوم طويلا : إنه لا يستطيع أبدا أن يترك امرأة جميلة عاش معها تتخذ عشيقا آخر بهذه السرعة ، وأمام عينيه تقريبا ، خاصة إذا ما كان أصغر منه عمرا ! هل تدرकिन ؟ لقد كان حريا أن يعود إلى اشتهاها سريعا .. رغم أنه يحبك ، ولو لمجرد أن يطمئن نفسه ! إنه شديد الغرور .. أو هو غير واثق من نفسه .. كما تشائين ، ولقد كانت إلزا كفيلة بأن تفعل - تحت إرشادى - كل ما يلزم ! وما كان ليصمد طويلا حتى يخونك ، الأمر الذى ما كنت لتتحمليه ، أليس كذلك ؟ إنك لست من أولئك النسوة اللاتي يقبلن فى رجالهن مشاركا وهكذا كنت حرة أن ترحلى .. وذلك بالضبط ما كنت أريد ! نعم إنه غباء ، ولكنني كنت غاضبة منك بسبب برجسن والحرارة . ولقد تخيلت أنه .. ولم أجرو حتى أن أخبرك ، فقد كان كل شيء مبهما ومثيرا للضحك . لقد كان من الممكن أن يفرق ذلك الامتحان بينك وبيننا ، أنت صديقة أسمى ، وصديقتنا . ومع ذلك فإنه من المفيد أن أحصل على (البكالوريا) .. أليس كذلك ؟

وعند ما بلغت هذا الحد من أفكارى رفعت صوتى بالسؤال :

- أليس كذلك ؟

فتساءلت آن :

- أليس ماذا .. أن (البكالوريا) مفيدة ؟

ولكننى لم أزد عن أن قلت :

- نعم .

ثم انطلقت إلى المياه وراه أبى . ورحلت أعابته ، وأستعيد لذة

اللعب ، والمياه ، وخلو البال . كان من الأفضل على أى حال ألا أخبرها بشيء ، فلربما لم تستطع أن تفهم . ولقد كانت هناك أشياء لا تفهمها آن على الإطلاق ! وغدا أغير غرفتى وأنتقل بكتبى إلى العلية ، وإن يكون برجسن بينها .. حتى لا يفسد على الأمر ! وإن هى إلا ساعتان من العمل كل يوم ، فى وحدة وجهد صامت .. ومع رائحة المداد والورق ! ثم النجاح فى أكتوبر ، وضحك أبى المندهل ، وتشجيع آن ، والشهادة . سأصبح ذكية مثقفة ، متعالية بعض الشيء .. كآن . ولربما كانت لدى مواهب ذهنية : أو لم أضع خطة منطقية حصيفة فى خمس دقائق ، خطة بغيضة بلاشك .. ولكنها منطقية ؟ وإلزا ، أو لم أعرف كيف أنير غرورها وأحاسيسها ، وكيف أسوقها فى بضع دقائق .. وهى التى لم تعد إلا لتأخذ حقائبها ؟ لقد كان ذلك عجيبا حقا : تفحصتها وعرفت مواضع الضعف فيها ، ثم صوبت عبارتى فى دقة وأحكام . ولأول مرة فى حياتى عرفت لذة تحليل شخص آخر ، والكشف عما بداخل نفسه ، ثم السيطرة عليه . كانت تلك تجربة جديدة حقا ، فقد كنت دائما مندفعة ، ولم يكن اقترابى من فهم إنسان ما سوى مجرد صدفة .. إلى أن كان اكتشافى المفاجئ . هذا ، لتلك الميكانيكية المدهشة للمخيلة البشرية ، وذلك السحر الكامن فى الكلمة . وأحسست الأسف إذ قادتني إلى ذلك أكاذيب .. بيد أننى قلت لنفسى إن يوما سيأتى ولا بد ، يصرعنى فيه غرام طاغ فأجدنى محتاجة إلى تحسس الطريق إلى قلب حبيبى ، فى حذر ورقة ، وارتعش ..

فكانت إفاقتي في الصباح أسوأ مما يمكنني أن أذكر . ويممت صوب
غابة الصنوبر في ارتباك وتردد ، دون أن أرى شيئاً من البحر أو طيور
النورس الهائجة .

وكان سيريل يقف أمام بوابة الحديقة .. وما أن آرنى حتى اندفع
نحوى وأخذنى بين ذراعيه ، ثم راح يعتصر جسدى وهو يهمس
بعبارات منقطعة :

- عزيزتى ، كنت شديد القلق .. من مدة طويلة .. لم أكن
أعرف ما تصنعين ، أو ما إذا كانت تلك المرأة تسمى اليك .. لم
أكن أتوقع أن أكون شديد البؤس إلى هذا الحد .. كنت أعبر
الخليج كل أمسية ، مرة ، ومرتين .. لم أكن أعرف كم أحبك ..
فقلت :

- ولا أنا .

والحقيقة أن ذلك أدهشنى وهزنى في الوقت ذاته ، لكننى كنت
عاجزة عن تبيان مشاعرى نحوه ، بسبب ما كان يعتصر قلبى من ألم .
وعاد يقول :

- كم أنت شاحبة . منذ الآن سأعتنى بك .. ولن أتركها تسمى .
معاملتك أكثر من ذلك .

وتعرفت في كلماته على خيال إلزا ، وسألت سيريل عما قالت
أمه عنها ، فأجاب :

- لقد قدمتها إليها كصديقة يتيمة ، وعلى أى حال فقد كانت
إلزا لطيفة . ولقد حدثنى بكل شئ فيما يتعلق بتلك المرأة .. وإنه
لعجيب حقاً أن تكون ، بهذا الوجه الرقيق البرىء ، امرأة مغامرة .

وفي الطريق إلى (فيلا) سيريل ، صباح اليوم التالى ، كنت
أقل ثقة بشجاعتى الذهنية . ذلك أننى أكثر من الشراب في الليلة
السابقة ، احتفالاً بشفاى ! وانطلقت أحدث أبى في مرح متناه ،
بأن هدفى سيكون ليسانس الآداب .. وأننى لن أعاشرفى المستقبل
إلا المثقفين ، قلت له إننى أريد أشتهر ، وأن عليه أن يستخدم كل
إمكانيات الدعاية ليشق لى طريقاً . ثم أخذنا نتبادل الآراء الشاذة
ونتفجر ضحكاً ، وجعلت آن تضحك هى الأخرى .. غير أنها
كانت تفعل ذلك فى شئ من الهدوء والتساهل ، وتكف تماماً
من وقت إلى آخر ، كلما تعدت آرائى نطاق الأدب وخرجت
على أبسط قواعد اللياقة . ومع ذلك ، فقد كان أبى يبدو سعيداً
للفتنة بعودتنا إلى ذلك النوع الثقيل من المزاح ، حتى أنها لم تعترض !
وفي النهاية حملانى إلى الفراش وأرقدانى فيه ، فشكرتهما فى حماس
وأنا أتساءل عما كنت صانعة دونهما . ولم يكن أبى يعرف فى الحقيقة
عن ذلك شيئاً ، أما آن فكان مر الواضح أن لديها فكرة قاسية فى
هذا الشأن . ولكن ، بينما أنا أتوسل إليها أن تخبرنى .. صرعى
النوم . وفى منتصف الليل أصابنى المرض .. ورحت أتقيأ ،

فقلت في نبرات متخادلة :

- لقد بالفت إلزا كثيرا . ولقد كنت أريد أن أقول لها إن ..
إلا أنه قاطعني :
- وأنا أيضاً لذي ، ما أقوله لك . سيريل ، إنني أريد أن
أتزوجك .

واستولي على الذعر .. كان من الحتم أن أصنع أو أقول شيئاً ،
فقط لو أنني لم أكن أحس ذلك الألم الفظيع !
وعاد سيريل يهمس في شعري :

- إنني أحبك . واسوف أكف عن دراسة الحقوق ، فقد عرض
عليّ عملاً بمجزيا .. عملي .. إنني في السادسة والعشرين ولم أعد طفلاً ،
وإنني لجاد فيما أقول .. ما قولك ؟

فرحت أبحث في يأس عن عبارة جميلة ذات معنيين ! لم أكن
أريد أن أتزوج ، كنت أحبه ، ولكنني لم أكن أريد أن أتزوج ،
لم أكن أريد أن أتزوج احداً ، كنت متعبة .. وأخيراً همست :

- إن ذلك مستحيل ، قأبي ..

ولكنه عاد يقاطعني :

- أنا أنكفل بأبيك .

فقلت :

- إن توافق آن ، فهي تعتقد أنني لم أبلغ بعد . وإذا قالت هي

لا ، فسيقولها أبي أيضاً . إنني متعبة جداً ياسيريل ، فإن كل

تلك الانفعالات ترهقني . ها هي إلزا !

وكانت إلزا تنهبط الدرج في رداء منزلي ، نضرة ساطعة .

وأحسست نفسي شاحبة نحيلة ، على حين كانا بفيضان صحة
ونشاطاً .. مما زادني ألماً ! وأجلستني إلزا وهي تحطني بألوان من
الرعاية ، وكأنما كنت خارجة من السجن .. ثم سألتني :

- كيف حال ريمون ؟ هل عرف أنني قد أتيت ؟

كانت ترسم على شفتيها ابتسامة الغفران والأمل ، ولم يكن في
إمكانني أن أقول لها أن أبي قد نسيها ، أو أن أقول لسيريل أنني
لا أريد أن أتزوج .. فأغلقت عيني . وذهب سيريل ليحضر
القهوة ، فراحت إلزا تتكلم وتتكلم . وكان من الواضح أنها تعتبرني
شديدة الخدق ، وتضع فيّ كامل ثقها ! وكانت القهوة فعالة معطرة
والشمس ساخنة منعشة ، فعدت أحس بعض النشاط .

وعادت إلزا تقول بعد قليل :

- لقد بحثت وبحثت دون أن أجِد حلاً .

وعقب سيريل :

- لا يوجد حل لذلك . إنه العشق والسيحر ، وليس هناك

ما يمكن عمله .

فقلت :

- بل هناك . إنما ينقصك الخيال .

ولذ لي أن أراها يتعلقان بكلماتي : كلاهما كان يكبرني بعشر

سنوات ، ومع ذلك لم يكن لدى أحدهما فكرة ما ! وعدت أستأنف

في لهجة متعالية :

- إنها مسألة نفسية .

ثم رحت أتكلم طويلاً ، شارحة لهما خطتي . وجعلوا يبديان

ففس الاعتراضات التي كنت قد افترضتها من قبل ، وأحسست لتنفيذها لذة عنيقة . وهزنتي ذات المشاعر من جديد .. وأنا أقنعهما بأنها خطة فعالة ، فلما لم يبق إلا أن أبين لهما ضرورة عدم تنفيذها .. لم تسعني المبررات المنطقية الكافية !

وقال سيريل :

- إنني لا أحب هذا التآمر . ولكن ما دامت هذه هي الوسيلة الوحيدة للزواج منك ، فأنني أوافق .
فشرعت أقول :

- إنها ليست غلطة آن وحدها ..

ولكن إلزا قاطعتني :

- إنك تعرفين جيداً أنها لو بقيت فستزوجك ممن تريد . وخطر ببالي أنها قد تكون على صواب ، وتخيلت آن وهي تقدم إليّ شاباً ذكياً متزناً ومخلصاً ، يحمل درجة جامعية وينتظره مستقبل مرقوق .. وفيه الكثير من سيريل ، فجعلت أضحك .

غير أن سيريل صاح بي :

- لا تضحكي أرجوك . قولي لي أنك ستحسين الغيرة عندما أقوم بدوري الغرامي مع إلزا . كيف أمكن أن يدور بذهنك شيء كهذا .. هل تحبينني حقاً ؟

وكان يتكلم في صوت منخفض ، فانسحبت إلزا في هدوء وتركتنا وحدنا . ورحت أنطلع إلى وجهه الأسمر المتوتر السمات .. وعينيّه الداكنتين ، وقد داخلني شعور غريب وأنا أفكر في أنه يحبني ورأيت شفتيه المسكتزتين تقتربان من شفتي ، فلم أعد قادرة أن

أسيطر على نفسي . وزاد اقتراباً ، فتلامست شفاهنا .. وقبلني . وسكنت لحظة بين ذراعيه ، بعينين مفتوحتين ، وفيه الدفء . المسكتز مستقر على فمي . ولكن سرعان ما اجتاحت شفتيه رعشة خفيفة ، فمال يضغط بهما على شفتي ليهدهما ، ثم .. ثم انفرجتا قليلاً وراح يقبلني في قوة وحذر ، حذر شديد ! وعندئذ تحققت من أن استعدادي لتقبيل شاب تحت أشعة شمس دافئة ، كان أشد من أهليقي للحصول على شهادة ما ! وأخيراً أفلت من بين ذراعيه لأسترجع أنفاسي ، فأخذ يقول :

- سيسيل .. يجب أن يجتمع شملنا ، وحتى يتحقق ذلك سأقوم بدوري مع إلزا .

وبدأت أتساءل عما إذا كان حسابي صحيحاً .. وإذا كنت العقل المدبر والمخرج لتلك المسرحية ، فقد اعتقدت أن في إمكاني دائماً أن أوقفها !

ولم يلبث سيريل أن أضاف ، وهو يتسم تلك الابتسامة الجانبية الخفيفة التي كانت تجعل له هيئة قاطع طريق ، قاطع طريق قاتن :

- إنك لعل حذر شديد .

فهمست :

- قبلني .. قبلني بسرعة .

وهكذا رفعت الستار عن المسرحية ، رغم إرادتي ، في استسلام وفضول . وكم كنت أفضل لو أنني فعلت ذلك في عنف وبغض .. حتي أستطيع أن أواجه ذاتي بالاتهام ، بدلاً من أورد الأمر إلى الكسل والشمس .. وقبلات سيريل !

وعندما تركت شريكى ، بعد ساعة ، كنت فى غاية الضيق . . وإن كانت لا تزال هناك ، على أى حال ، بعض الاحتمالات : كان من الجائز أن تفشل خطتى رغم كل شىء ، إذا ما سما أبى بحبه لأن إلى مستوى الاخلاص . إلى أنه . . لا سيريل ولا إلزا كان مستطيعا شيئا دونى ، وفى إمكانى بلا شك أن أجد سببا لإيقاف تلك اللعبة إذا ما بدا أنها ستجوز على أبى . على أنه كان من الطريف ، على أى حال ، أن أحاول تنفيذ خطتى ، لأعرف قيمة أحكامى النفسية .

ثم أن سيريل كان يحبنى ، وقد طلب يدى ، وكان ذلك وحده كافيا لأن يزدهينى ويشغل بالى . ولو أنه كان مستطيعا أن يصبر عاما أو عامين . . حتى أبلغ ، لقبلة . ورحلت أتخيل نفسى وقد أصبحت زوجة له ، أنام إلى جواره ، ولا أتركه أبداً . ونتناول الغداء كل أحد مع أبى وآن كأسرة سعيدة . ولربما شاركنا والدته سيريل أحيانا ، فيكتمل الجو لنا العائلى .

والتقيت بآن فى (التراس) ، وهى فى طريقها إلى الشاطئ . لتلحق بآبى . واستقبلتنى بتلك الابتسامة الساخرة التى نحى بها من تمادى فى الشراب الليلة السابقة . وسألته أن تخبرنى بما كانت توشك أن تقوله لى قبل أن أنام الليلة الماضية ، غير أنها رفضت وهى تبتسم . . بحجة أن ذلك سيفضبنى ! وخرج أبى من المياه ، عريض الكتفين مفتول العضلات ، يبدو على خير ما يرام . ونزلت إليها مع آن التى راحت تسبح فى هدوء ، محتفظة برأسها فوق الأمواج حتى لا يبتل شعرها . وبعد قليل كنت أنبطح فوق الرمال بينهما يشملنا الصمت والهدوء .
وفجأة ، ظهرت أشعة القارب المتفخخة عند أقصى الخليج .

وكان أبى أول من لمحها فقال ضاحكا :

- وهكذا لم يعد العزيز سيريل يستطيع صبرا . . ألا نساعده . .
يا آن ؟ إنه فتي طيب على أى حال .

فرفعت رأسى وقد استشعرت الخطر ، وفى نفس اللحظة استأنف أبى :
- ولكن ماذا تراه يفعل ؟ إنه يعبر الخليج ولا يدخله . .
إنه ليس وحيدا .

وكانت آن بدورها قد أدارت رأسها عندما أصبح القارب أمامنا تماما ، فرحت أتوسل إلى سيريل فى أعماقي ، وأرجوه أن يبتعد . إلا أن صيحة أبى ، التى كنت أنتظرها منذ لحظات ، لم تلبث أن انطلقت لتجملنى أنتفض :

- ولكن . . ولكنها إلزا ! ماذا تفعل هناك ؟

ثم لم يلبث أن استدار إلى آن وهو يضيف :

- إنها فتاة عجيبه ! لا بد أنها سحرت الفتى المسكين وفتنت أمه العجوز .

ولكنها لم تكن تستمع إليه ، بل كانت تتأملنى . ولم أستطع أن أواجه نظراتها ، فدفت وجهي فى الرمال لأدارى خجلي . .
غير أنها مدت يدها ووضعته فوق عنق وهى تقول :
- انظرى إلى . . هل أنت مستاءة منى ؟

واستدرت إليها ، فأنحنت فوقى وفى عينيها قلق يكاد يتحول إلى توسل ورجاء ، كانت تعاملنى لأول مرة كمخلوق مفكر ذى شعور ، ومتى ؟
فى اليوم الذى . . وأفلتت منى صرخة خافتة ! وأدريت رأسى فى عنف ناحية أبى لأتخلص من يدها ، وإذا بي أراه يتطلع إلى القارب .

واستأنفت آن في صوت خافت :

- يا طفلي المسكينة .. لربما كان الخطأ خطأي . ولعله لم يكن من الضروري أن أقسو عليك إلى هذا الحد . إنني لم أقصد إبلاكك أبداً .. هل تصدقيني ؟

ثم راحت تتحسس شعري وعنقي ، في حنان . وسكنت تحت لمساتها ، وبني إحساس كأنما تهرب الرمال من تحتي مع موجة متراجعة : أبداً لم يسيطر عليّ شعور مثالما كانت تسيطر عليّ ، في تلك اللحظة ، رغبة طاغية في الفشل .. والسلام . ولكم تمنيت لو أتخلى عن كل ما دبرت ، وأضع حياتي بين يديها إلى المنتهى . ولم أكن قد أحسست بمثل هذا الضعف أبداً ، فأغلقت عيني وأنا أحس ضربات قلبي تتخاذل .

لم يكن أبي قد أبدى سوى الدهشة . وهناك في المنزل ، أخبرته الخادم أن إلزا كانت قد حضرت لتأخذ حقائبها ثم رحلت على الفور . ولست أدري لماذا لم تخبره تلك الريفية ، الرومانتيكية المشاعر ، أنني استقبلت إلزا .. لا بد وأن كانت لديها فكرة كاملة عن حالتنا وما اعتراها من تغييرات منذ التحقت بخدمتنا ، خاصة ما لحق منها بغرف النوم !

وكانا - آن وأبي - قد راحا يغمرانني ، تحت وطأة تأنيب الضمير ، بفيض من الرعاية والرقعة بدلي غير محتمل أول الأمر ، غير أنني لم ألث أن رحت أستمتع به . والحقيقة أنني لم أكن مستطيعه أن أستطيع ما رسمته بنفسى لسيريل وإلزا من حركات : كنت ألتقي بهما دائماً وقد تشابك ذراعاهما ، وبدت عليهما دلائل انسجام تام وعلى حين استحيات على صهجة سيريل ، كنت مضطرة إلى مشاهدة إلزا تقف إلى جواره في القارب ، وقد أزعجت الرياح شعرها إلى الوراء .. تماماً كما كانت تصنع بشعري . ومع ذلك لم أكن أجد أدنى صعوبة في أن أشرح بوجهي كلما التقينا ، وأنا أظهار بعدم الاكتراث . وقد كنا نلتقي في كل مكان : في الغابة والقرية ، وعلى الطريق وكانت آن تقاملني إذ ذاك لحظة ، ثم لا تلبث أن تستأنف الحديث في موضوع جديد وهي تضغط كتفي ، مشجعة . هل تحدثت من قبل عما كانت

تستطيعه من رقة؟ إنني لا أعرف في الحقيقة ما إذا كانت رقتها
مظهرا لذكائها أو أنها لم تكن سوى عدم اهتمام، ولكنها على أي حال
كانت مستطبعة أن تجددانها الكلمة والحركة اللامتناهين، فلو أنني كنت
حقيقة أنحسر على سيريل لما وجدت من يواسيني خيرا منها .

وهكذا تركت كل شيء يسير في طريقه دون ما قلق شديد ،
إذ لم يبد من أبي - كما قلت - ما يدل على الغيرة ، الأمر الذي كشف
عن شغفه بأن .. وعاظني بعض الشيء بما تضمنه من بوادر فشل
خطئي . وذات يوم ، بينما كنت وأبي في طريقنا إلى مكتب البريد،
مرت بنا إلزا متظاهرة بعدم رؤيتنا ، فاستدار أبي يطلق وراءها
صغير إعجاب ودهشة .. وكأنما لم يرها من قبل . ثم لم يلبث
أن قال :

- خبريني .. كم زادت إلزا جمالا !

- يبدو أن الغرام يوافقها ..

فقال وهو يتأملني في دهشة :

- إنك تتقبلين الأمر في بساطة .

- وماذا تتوقع غير ذلك؟ إنهما متقاربان عمرا، ولقد كان من الحتم ..

والكه قاطعني في هياج :

- لولا أن لما كان هناك حتم على الإطلاق! ولا أظنك تعتقدين

أن طفلا كهذا ، كان مستطيعا أن ينتزع امرأة من بين يدي ..

ما لم أكن راضيا بذلك !

غير أنني أجبت في رصانة وجد :

- ومع ذلك فإن للعمر أهميته .

فلم يزد عن أن هز كتفيه .. ولكنني لاحظت ونحن عائدان ،
أنه مشغول البال . ولعله كان يفكر أن كلا من سيريل وإلزا كان
لا يزال في الواقع شابا، وأنه بزواجه من امرأة تقربه عمرا سيخرج من
طائفة .. الرجال بلا عمر ! وغمرني إحساس عنيف بالانتصار ،
إلا أنه سرعان ما عدت أفاقي الحجل عندما رأيت ما في أركان عيني
آن من تجاعيد ، وما حول فمها من خطوط خفيفة . ومع ذلك ،
فقد كان من السهل علي أن أجري دوافعي ، تاركة الندم لما بعد !
ومضى أسبوع ..

ولا بد وأن سيريل وإلزا، اللذين كانا يجهلان مدني سير الأمور،
راحا يترقبان وصولي كل يوم . ولكنني كنت أخشى أن أذهب
للقائهما فيغرياني بمحاولة شيء آخر جديد ، فرحت ألجا إلى
غرفتي كل أمسية وأنا أنظاها بالترتيب في العمل . والحقيقة أنني
لم أكن أعمل ، فقد وقع بين يدي كتاب في اليوجا* .. رحت أمارس
ما جاء به وأنا أكتب ضحكاتي حتى لا تترامى إلى آذان آن . ذلك أنني كنت
أمثل أمامها دور فاشلة في الحب ، تعمل لتتناسي أشجانها . وأفهمها
أنني منكبة على العمل ، شديدة الرغبة في الحصول على الليسانس
ذات يوم .. آملة أن يرفع ذلك من قدري لديها . بل وكنت أذهب
في سبيل ذلك إلى حد اقتباس بعض عبارات من كانت - ونحن جلوس
إلى المائدة - ترد أبي يائسا .

وذات أمسية ، حلالي أن أحيط نفسي بجو شبه هندي فأدبرت

* فلسفة هندية، تقوم على التأمل في هدوء، والتصرف والهدوء. نسبة إلى يوجا -

مناشف الحمام حول رأسى. ثم أسندت قدمي اليمنى إلى فخذي اليسرى ورحلت أنطلع إلى خيالي في المرأة، لا إعجاباً... بل لأضبط من هيتني حتى تقارب هيئة نساك اليوجا! وطرق الباب فجأة فظننتها الخادم، ولما كانت لا تهتم بشيء فقد صحت أدعوها لتدخل. ولكنها لم تكن الخادم... بل آن! ومضت لحظة وهي ثابتة في مكانها، غير أنها لم تلبث أن تقدمت إلى الداخل وهي تبتمس وتقول:

— ماذا تلعبين؟

فأجبتها:

— ليوجايز. ولكنها ليست لعباً على الإطلاق، إنها فلسفة هندية. فاتجهت إلى المائدة وتناولت كتابي. وبدأت أحس القلق، فقد كان الكتاب مفتوحاً على الصفحة المائة، وكانت تغطي الصفحات السابقة ملاحظات بخطي، من مثل «صعب للغاية» و«منهك»! وانقضت لحظة وهي تتأمله، ثم لم تلبث أن قالت:

— إنك واسعة الإدراك حقاً، ولكن أين ذلك البحث الذي تعدينه عن بسكال... ماذا تم بشأنه؟

وكنيت قد حدثتهما ونحن جلوس إلى المائدة عن فقرة من... بسكال، بطريقة توحى بأنها موضع بحثي واشتغالي. ولكنني لم أكن قد خططت حرفاً واحداً، بطبيعة الحال. وانتظرت أن أجابني، ولكن انتظارها طال دون أن يفتح عليّ بجواب، فلم تلبث أن قالت وقد أدركت حقيقة الأمر:

— أما وأن تمتنعى عن العمل، وتتراقصى هكذا أمام المرأة..

فشأنك وما تريدن! ولكن أن تكذبي على أيك وعلى... بهذه الطريقة، فذلك مالا يحتمل! الحقيقة أنني كنت في دهشة من نشاطك الذهني المفاجئ. هذا.

ثم انطلقت من الغرفة وتركتني مسمرة في مكاني... كتمثال ملفوف في مناشف حمام! عاجزة عن إدراك السبب في استعمالها كلمة «كذب». والواقع أنني لم أتحدث عن بسكال إلا لأن ذلك حلاً لي، ولم يكن تظاهري بالبحث إلا لإرضائها! ولكن هاهي تلومني... وتتهمني بالكذب! وإذا كنت قد اعتدت مسلكها الجديد المنطوي على التساهل معي، فقد كان احتقارها البارد المهين هو الشرارة التي فجرت غضبي من جديد.

وسرعان ما ألقيت المناشف عن جسدي، وارتديت سروالاً و قميصاً قديماً، ثم هرولت إلى الخارج.

كان القيظ في الخارج لهيباً... والمنازل تبدو، تحت وطأته، غائرة ساكنة، منطوية على أسرارها. ولكنني رحلت أجرى مدفوعة بنوع من السعر، يزيد من حدته إحساسي الخجل، جريت طوال الطريق حتى (فيلا) سيريل، ولم أتوقف إلا أمام باب الحديقة لأسترجع أنفاسي. ثم لم ألبث أن تسلمت إلى غرفة سيريل، التي كان قد أراها يوم زرنا والدته.

وفتحت الباب فرأيت راقداً في الفراش ورأسه مستند إلى ذراعه، وقد راح في ثبات عميق. ووقفت أتأمله لحظة: كان يبدو أمامي لأول مرة، أعزل، يستدر الحنان. ثم ناديت في

صوت خافت ، فما أن فتح عينيه ورآني حتى قفز جالساً في فراشه وهو يصيح :

- أنت ! كيف . . ما الخبر ؟

وأشرت إليه أن يخفض من صوته ، فلوأن والدته جاءت ورأني في غرفة ابنتها لظنت . . ومن ذا لا يظن !؟ غير أنني أحسست الذعر يحتاجني فجأة واستدرت أريد الباب ، فصاح سيريل :

- ولكن ، إلى أين ؟ سيدسيل . . تعالى !

وكان قد أمسك بي من رسغي وهو يضحك ، فاستدرت إليه وإذا بوجهه يتقلب شاحباً فجأة ، كما كان وجهي . . بلاشك ! وسرعان ما ترك رسغي ، ليضمنني على الفور ويسحبني إلى الفراش . ورحلت في ارتباكٍ أقول لنفسي : « لم يكن بدمن أن يحدث هذا يوماً ما . . لم يكن بدمن أن يحدث هذا . . » ثم كانت دورة الغرام : الخوف فالرغبة فالحنان فالسهر ، ثم ذلك الألم الوحشي الذي تبلغ به اللذة ذروتها ، لقد أتيت لي الفرصة - وشكراً لركة سيريل ! - لاكتشاف تلك اللذة والتعرف عليها لأول مرة ذلك اليوم .

وأمضيت إلى جواره نحواً من ساعة ، سعيدة مذهولة . كنت قد سمعت كلمة الحب تلقى من حولى في سهولة ، بل وتحدثت عنه بدورى في غباء . . كما يفعل كل مراقق جاهل . ولكنني أدركت ، في تلك اللحظات ، أنه لن يعود في إمكاني التحدث عنه بتلك الطريقة الفظة المستهترة .

وكان سيريل يتحدث ، وهو راقد إلى جوارى ، عن زواجنا والتصاقنا طوال الحياة . . إلا أن صمتي كان يقلقه . واعتدلت لأنامله وأنا أدعوه « عشيقى ! » ، ثم ملت أقبل منه وربرد عنق لم يزل ينتفض ، وأهمس : « عزيزى . . عزيز سيريل . . » .

لم أكن أعلم ، علم اليقين ، ما إذا كانت أحاسيس نحوه هي . . الحب - كنت أعرف أنني دائماً متقلبة ، ولم أكن أريد أن أعتقد شيئاً غير حقيقي - إلا أنني . . في تلك اللحظة بالذات . . كنت أحبه أكثر من نفسي ، وكنت حرة أن أفقده بحياتي . وإذا وقفت أودعه ، سألني ما إذا كنت مستاءة منه ، فأنفجرت أضحك . . كيف يمكن أن أستاذ منه وقد أذاقني كل تلك السعادة ؟ !

وعدت متعبة متراخية ، أجتاز غابة الصنوبر في خطوات بطيئة . وحدي ، فقد كان من الخطر أن يرافقني سيريل ، خاصة وقد تكون النشوة خلقت ظلالاً حول عيني ، أو تورماً في شفتي . . ارتعاشاً .

وأمام (الفيلا) كانت آن ترقد متراخية في مقعد طويل ، وبين يديها كتاب تطالع فيه . وكنت قد أعددت من قبل بعض الأكاذيب أبررها غيابي ، غير أنني لم أكن محتاجة إليها . . فما كانت آن توجه الأسئلة أبداً . وذكررت فجأة أننا قد تعاركنا ، فجلست على مقربة منها في صمت . وثبت في مكاني مسجلة العينين لا أنتحرك . . يستغرق انتباهي تلاحق أنفاسي وارتعاش أصابعي ، وتهيج بي ذكريات جسد سيريل من لحظة إلى أخرى ، وينوشني ما كان في لحظات معينة . . فيذوب قلبي .

وتناولت لفافة من فوق المنضدة ثم أشعلت عوداً من الثقاب ،

انطفأ في الحال . وأشعلت عوداً آخر في حيطه وحذر، إذ لم تكن هناك رياح على الإطلاق . إنما كانت يداي ترتعشان! ومع ذلك فقد انطفأ بدوره قبل أن يلامس لفافتي . وتناولت عوداً ثالثاً وأنا أتميز غيظاً ، ولسبب ما بدا لي اشتعال ذلك العود أمر حياة أو موت . . ربما لأن آن تخلت عن برودها فجأة وراحت تتأملني في اهتمام دون أن تبسم ! وفي لحظة واحدة ذابت الأشياء من حولي واهي الزمن ، ولم أعد أحس بغير ذلك العود بين أصابعي . . وعلبة الثقاب ، ونظرات آن . . وقلبي يغوص بين جنبي وهو يدق في عنف .

وتشبثت بالعود في قوة ثم أشعلته ، ولكن ما أن انحنيت فوقه حتى صدمته اللقافة وأطفأته . . فتركت علبة الثقاب تسقط على الأرض وأغلقت عيني . وسرعان ما أحسست نظرات آن الفاحصة تستقر عليّ، فرحت أن تضرع أن يتدخل إنسان، أو شيء ما ، فيقطع ذلك التوتر والترقب . ولكن بدا أن هي التي تدخلت . . اترفع وجهي إليها، فأطبقت جفني شديدا خشية أن تقرأ في عيني شيئا أو ترى ما بدا يتجمع فيهما من دموع ، دموع الإرهاق . . واللذة . . والهوان ! وكأنما قررت فجأة أن تدع الأمر يمضي في هدوء ، فقد مسحت على خدي دون أن تقول شيئا ، ثم أشعلت لقافة دفعتهما بين شفتي . . واستدارت عائدة إلي كتابها .

ولربما كان لذلك الحادث معنى رمزيا ، فأنني أسترجع ، الآن ، تلك اللحظات كلما خذاني عود ثقاب . . وأروح أفكر في عدم استجابة يدي ، وثقل نظرات آن ، وذلك الفراغ الفارغ المحيط بي .

لم يكن ذلك الحادث ليمضي دون عواقب ، فما كانت آن - وهي المتزنة الواثقة من نفسها - لتغفر أي إخلال بالشرف . وهي عندما تركتني وشأني كانت تنصرف ضد مبادئها ، ولا شك . لقد استنتجت شيئا ما ولا بد . . وكان من السهل عليها أن تحملني على الاعتراف ، غير أنها استسلمت في اللحظة الأخيرة لإشفاقها عليّ . . أو لعله عدم الاكتراث غلبها على أمرها ! لقد كانت حريّة أن تجد في ترويض من المشقة ما تجد في التسليم بأخطائي ، ولم يكن هناك من سبب يضطرها إلى القيام بدور المربية والوصية ، في الحالين ، سوى إحساسها بالواجب : كانت ترى أن زواجها بأبي يستتبع مسئوليتها عني أيضا . وكم كنت أفضل لو أن استنكارها الدائم لتصرفاتي كان صادرا عن حنق وغيظ أو أي إحساس آخر أشد إثارة الأعصاب ، ذلك أننا لا نلبث أن نعتاد أخطاء الآخرين ، ما دمنا لانحس من واجبنا تقويمهم ! ولقد كانت حريّة ألا نعود نحس نحوي - في مدى ستة أشهر - سوى ملل ودود . . يوافقني تماما ! غير أن ذلك ما كان ليصدر عنها أبدا ولديها ذلك الشعور العميق بمسئوليتها عني ، خاصة وقد كنت لأزال عجينة لينة ، عجينة لينة ولكن عنيدة !

كانت مستاءة من نفسها إذن ، وجعلتني أحس ذلك . ومضت بضعة أيام ثم ثار نقاش ، ونحن جلوس إلى المائدة ، بشأن دراستي خلال الأجازة . . موضوع النزاع الدائم ! وتبادلت قليلا في وقاحتي ،

حتى إن أبي ذاته أبدى استياءا . وفي النهاية أغلقت آن علي باب غرفتي بالمفتاح ، مع أنها لم تكن قد رفعت صوتها أثناء النقاش .. غير أنني لم أعرف ما صنعت بي حتى أردت الخروج لأشرب قدحاً من الماء . وإذ لم أكن قد حبست من قبل فقد استولي علي الزعر ، زعر حقيقي ، وهروات إلى النافذة .. غير أن الخروج عن طريقها كان مستحيلاً ، فعدت إلى الباب أرمي بنفسى عليه في جنون .. حتى آذيت كتفي . ثم رحت أحاول كسر القفل بمقص الأظافر وأنا أعض على نواجذى ، غير أن محاولاتي باءت بالفشل . ولما لم أكن راغبة في الاستنجاد بمن يفتح لي ، فقد وقفت وسط الغرفة منتصبية بلا حراك ، أراعي ذلك الضرب من الهدوء والسكينة الذي راح يعلو في داخلي بالتدريج كلما وضحت وتركزت أفكاري . وكانت تلك أول مرة أواجه فيها القسوة ، فكان طبيعياً أن تعتصر روحي .. وتغذيها أفكارى فتزداد عنفاً . وسرعان ما ارتيمت في الفراش وقد تفجرت في داخلي وحشية فظيعة ، ألهتنى عن كل شيء سوى تدمير انتقامي ، حتى إننى حاولت الخروج عدة مرات خلال الأمسية .. وفي كل مرة كنت أفاجأ من جديد بأن الباب مغلق !

وفي الساعة السادسة أقبل أبي يفك أسرى ، فقامت أستقبله في حركة آلية . وتطلع إلى دون أن يقول شيئاً ، فاستمت ابتسامة آلية أيضاً . ومضت لحظة قبل أن يسألنى :

- ألا تريد أن نتحدث قليلاً ؟

فأجبت :

- فيم ؟ أنت تعرف جيداً أن كليتنا يرهب ذلك النوع من الإيضاحات ، الذى لا ينتهى إلى شيء ..

فقال وقد بدا عليه شيء من الارتياح :

- إن ذلك لحقيق ، ولكن .. يجب أن تكونى أكثر رقة وأشد صبراً إذ تعاملين آن .

وأدهشتني عبارته : أنا .. أكون صبورة مع آن ؟ ! إنه يقلب الأوضاع ! لقد كان ينظر إلى آن كامرأة فرضها على ابنته ، لا العكس ! وإذن .. فما زالت هناك فسحة من الأمل . وسرعان ما أجبت :

- لقد كنت في الحقيقة سخيفة معها ، وسأعتذر .

فقال في تردد :

- ولكنك غير سعيدة ..

غير أننى قاطعته على الفور :

بل إننى لسعيدة . وإذا كنا نتنازع كثيراً - آن وأنا - فسأبادر إلى الزواج .. وينتهي الأمر .

وكنت أعرف أننى أضرب بذلك على وتر حساس ، وسرعان ما قال معترضاً :

- ذلك مالا يجب أن تفكرى فيه ، فما أنت بيلانشييج* ! أو تراكينى ولم نعش سوياً أكثر من عامين ؟

والحقيقة أن ذلك كان أمراً غير محتمل بالنسبة لى أيضاً ، غير أننى

* شخصيه في إحدى القصص الفرنسية .. فتاة تضطهد زوجها أيتها .

لم أكن مستطيعاً أن أشرك فيما أحس . وتخيلت لحظة ارتمائي
بأكية بين ذراعيه ، أودع سعادتنا الذاهبة ومشاعرنا الملتهبة ، فلم
ألبث أن قلت :

- إنني أبالغ كثيراً كما تعلم . والحقيقة أنني وآن متفاهمتان ،
وبشيء من التساهل المتبادل ..

فقاطعتني :

- بالطبع .

ولابد أنه كان يدرك ، مثلي ، أن ذلك التساهل لن يكون
متبادلاً بطبيعة الحال ، بل من جانب واحد .. جانبي !
وعدت أكمل :

- إنني أدرك تماماً أنها على صواب ، دائماً . والحقيقة أن مذهبها
في الحياة أكثر نجاحاً مما درجنا عليه .

فبدت منه حركة اعتراض لا إرادية ، غير أنني تجاهلتها
واستأنفت :

- وفي مدى شهر ، أو اثنين ، سأكون قد تمثلت أفكارها تماماً ،
فلا تعود هناك مناقشات سخيصة . إنما يحتاج الأمر إلى قليل من
الصبر .

فراح يتأملني وقد بان على وجهه الدهول ، والرغبة أيضاً :
لم يكن يفقد مجرد رفيق يشارك نزواته ، بل وجزءاً من ماضيه
أيضاً . ثم لم يلبث أن قال في نبرات ضعيفة :

- لا داعي لأن تبالغي . إنني أسلم أنه ربما كانت حياتنا غير
ملائمة لمن كان في مثل عمرك .. أو عمري ! غير أنها لم تكن على

أى حال بالسخيفة أو البائسة ، فما مللنا أبداً ولا حزنا خلال العامين
الماضيين . ولا أجد مبرراً لأن نتنكرى لها .. لمجرد أن مذهب آن
في الحياة يخالفها قليلاً .

فقلت في حزم :

- لن نتنكر لحياتنا .. إننا سنغيرها تماماً !

فلم يزد عن أن قال :

- بالطبع !

ثم قت أهبط معه لأبحث عن آن . وعندما التقينا ، رحت أعتذر
لها دون ما خجل .. غير أنها قاطعتني قائلة إنه لا داعي للاعتذار ،
إذ كانت الحرارة ، ولا شك ، السبب فيما حدث !

وقابلت سيريل في غابة الصنوبر كسابق اتفاقنا ، لأشرح له الخطوة
التالية . وراح يصغى إليّ ، موزع المشاعر بين الخوف والإعجاب ،
حتى إذا ما انتهت .. ثم احتواني بين ذراعيه . ولم يكن من الممكن أن
أبقى معه طويلاً فقد كان الوقت متأخراً ، غير أنني دهشت لما أحسست
من ألم عندما هممنا أن نفرق ! ولو أنه حاول قليلاً أن يستبقيني إلى
جواره لنجح ، فقد كان جسدي سريع التلبية لنداء جسده سريع ،
التفتيح تحت لمساته ! وقبلته في عنف ، أريد أن أعصره بين ذراعي
حتى لا يستطيع أن ينساني لحظة واحدة طوال السهرة .. بل وحتى
يحلم بي الليل بطوله ! فما كنت لأحتمل فكرة قضاء الليل دون
أن يكون إلى جوارى ، أستمتع بهياجه الفجائي ومداعباته .

وفي صباح اليوم التالي أغريت أبي بالترييض سيراً على الأقدام .
وقطعنا الطريق ونحن نثرثر في مراح بمالا أهمية له ، فلما استدرنا
عائدين اقترحت عليه أن نخترق الغابة . وكانت الساعة العاشرة
والنصف بالضبط — في الموعد تماماً — عندما دخلنا الممر الضيق ،
يتقدمني ليزيح الأشواك جانباً حتى لا نخدش ساق . ولم يطل بي
الانتظار فسرعان ما شاهدته يثبت في مكانه ، وفي الحال أدركت
أنه قد رأى . . . وتقدمت إلى جواره .

كانا هناك ، سيريل وإلزا ، راقيدين فوق أوراق الصنوبر
وكأنهما عاشقان سعيدان . ومع أنهما كانا ينفذان ما لقنتهما من
قبل . فقد أحسست بالغيرة تنهشني . ولكنني تماكنت مشاعري ونظرت
إلى أبي ، فوجدته يتأملهما بنظرات نافذة وقد اكتسب وجهه شحوباً
غريباً . ومددت يدي إلى ذراعه أجذبه وأنا أقول :

— لنذهبنا نأمن . ولنرحل .

فألقي بنظرة أخيرة إلى حيث ترقد إلزا . يغطيها جمال وشباب . .
وترينها بشرة ذهبية وشعر أحمر ، وتداعب شفيتها ابتسامة ناعمة . .
كعروس بحر صادها الغرام أخيراً . ثم لم يلبث أن استدأر على أعقابها
وانطلق مسرعاً وهو يتمتم :

— الفاجرة . . الفاجرة

فتساءلت :

— لم تقول هذا . . أو ليست حرة ؟

فأجاب :

— ليس هذا موضع البحث . أوراقتك مشاهدة سيريل بين
ذراعيها ؟

ولكنني قلت :

— ماعدت أحبه !

فصاح مهتاجاً :

— ولا أنا أحب إلزا ، ومع ذلك فانه يؤلمني . . إيه . . لقد
عاشتها وذلك أسوأ ما في الأمر !

و كنت أعرف أن ذلك هو أسوأ ما في الأمر ! ولا بد وأنه كان
يحس ذات الرغبة التي كانت تحتاجني : الرغبة في التفرقة بينهما ،
واسترجاع ماله ، ما كان له ! ومع ذلك فقد قلت :

— لو أن آن تسمعك . .

فرد :

— ماذا ؟ لو أنها تسمعني ؟ ما كانت لتفهم بالطبع . . بل كانت حرة

أن تصدم . ولكن ، أنت . . أنت ابنتي . . لم تعودي تفهميني ، أتراك
صدمت أنت أيضاً ؟ !

كان من السهل على أن أدفع بأفكاره إلى حيث أريد ، غير أن فهمي
له إلى هذا الحد كان يفزعني بعض الشيء . ومع ذلك فقد قلت أستشير
رغبته :

- إنني لم أعدم، ولكن .. يجب أن نواجه الأمور على حقيقتها.
إن إلزا تتمتع بذاكرة ضعيفة، وسيريل يفتنها .. لقد ضاعت منك!
خاصة بعد ما فعلت بها .. فما كان ذلك ليغتفر .

فشرع يقول :

- لو أنني كنت أريدها ..

بيد أنه سرعان ما توقف فزعا ، فقلت في حزم وكأنما كان من
الطبيعي أن أناقش فرصه في استرجاع إلزا :

- لن تنجح ..

غير أنه قاطعني وقد تمالك نفسه :

- ولكنني لا أفكر في شيء من هذا .

فقلت وأنا أهرز كتفي :

- بالطبع .. بالطبع !

و كنت أريد بتلك الحركة أن أقول له : « مستحيل أيها المسكين ،
فقد انسحبت من الميدان .. » ، ولكنه لاذ بالصمت حتى بلغنا البيت .
وما أن التقينا بأن حتى احتضنها وأبقاها بين ذراعيه ، فسكنت فوق صدره
باسمة . وانسحبت من الغرفة لأستند إلى حائط الممر وأنا أرتعش خجلا ..

وفي الساعة الثانية سمعت صفير سيريل الخافت فأسرعت ألحق به
على الشاطيء . حيث كان ينتظر ، وما أن وصلت حتى دفع بي إلى
القارب ثم انطلق به إلى عرض البحر . وكان البحر خاليا تماما ،
فما كان أحد ليحاول الخروج في مثل ذلك اللهيبي . وإذا ابتعدنا
عن الشاطيء طوى الشراع واستدار نحوى قائلا :

- هذا الصباح ..

ولم نكن قد تبادلنا الحديث منذ التقينا ، غير أنني قاطعته :

- لا تتكلم .. أرجوك لا تتكلم .

فجذبتني في رقة وأرقدني فوق الأغشية لتساقى الغرام ، مبللين
بماء ملح وعرق ، مرتبكين متلهفين ، ومن تحتنا القارب يتأرجح في
انتظام . ورحت أنظر إلى الشمس المعلقة فوقي تماما ! وفجأة أخذ
سيريل يلقي في أذني بهمساته الخنونة السحرية .. فتفجرت الشمس
وتوهجت وسقطت فوقي ! أين كنت ؟ في أعماق البحر .. في أعماق
الزمن .. في أعماق اللذة ؟ ودعوته في صوت مرتفع ولكنه لم يجب .. لم
تكن به حاجة لأن يجيب !

واستمتعنا بعد ذلك برودة المياه المالحة ، ثم رقدنا نتضاحك
مبهوري الأنفاس ، متراخين تغمرنا السعادة . لقد كانت لدينا الشمس ،
وكان لدينا المرح والبحر والغرام .. ترى أعود نستمتع بذلك
كله مجتمعا ، استمتعنا به ذلك الصيف ؟ أعود نحس ذلك البهاء ؟
أعود أحس تلك الحيرة ، يسكبها في وجداني الخوف وتأنيب
الضمير ؟ !

وإلى جانب اللذة الجسدية .. اللذة الحقيقية التي تذوقتها خلال
ممارسة الغرام ، كنت أحس نوعا من اللذة العقلية إذا فكر فيه . كانت
كلمة « ممارسة » المادية الإيجابية ، مضافة إلى ذلك المعنى المجرد لكلمة
« الغرام » تسكرني بما فيها من سحر لفظي . ولقد كنت أستعملها من
قبل دون أدنى حياء أو حرج ، ودون أن ألحظ مذاقها الخاص . ولكنني
لم أعد مستطيع أن أفعل ذلك ، فقد عرفت الإحساس بالدنس .. وأصبحت

أغض من بصرى كلها أطلقت آن ضحككتها الجديدة.. الخافقة غير المحتشمة،
فراح أبى يتطلع إليها متفرساً. وأيا كان الأمر، فما كانت آن إلا مستنكرة
لو أننا قلنا لها إن ضحككتها تحيلنا شاحبين، وتجعلنا نشيح بعيوننا
متطلعين خلال النافذة، فما كانت تعتبر نفسها عشيقة لأبى.. بل صديقة
رقيقة! ولكن، لاشك في أنه بالليل.. كم كنت أكره تلك الأفكار
وأهرب منها.

ومضت الأيام. ونسيت آن وأبى وإلزا.. بعض الشيء، فقد
فتح الغرام عيني على الحياة.. وحملني راضية هادئة إلى دنيا ثانية. وذات
يوم سألني سيريل ما إذا كنت لا أخشى الحمل، فلما أجبتته بأنني أضع
نفسى تماماً بين يديه تلقى قولى كأمر طبيعى. ولعلنى ما كنت لأسأله
نفسى بتلك السهولة لو لم أكن أعرف أنه لم يكن لي دعنى أتحمّل العاقبة،
وأنه لو حدث وحملت منه لكان هو.. موضع الملام والإدانة! لقد
كان يأخذ على عاتقه مواجهة ما لم أكن مستطيعه أن أتحمّله: المسئولية!
إلى أنه لم يكن فى وسعنى أن أتصور نفسى حاملاً، ولى ذلك الجسد
النجيل الصلب.. ولأول مرة فاض امتنانى لما وهبت من قوام فتى.
بيد أن إلزا كانت قد بدأت تفقد صبرها، وراحت تطاردنى بأسئلتها.
وكانت تحرص على ألا تغيب عن أنظار أبى، بل وجعلت تعترض طريقه
فى كل مكان ثم تنهى نفسها على انتصارات خيالية: رغبات مكبوتة،
كانت تردد أنه لم يستطع أن يخفيها! ولقد أدهشنى أن تنقلب تلك
الفقاة التى طالما قرنت بحكم مهنتها بين الغرام والنقود، رومانتيكية
التفكير.. تستثيرها تفاصيل دقيقة: كنزيرة أو حركة.. أشياء
لم تكن تعنى بالنسبة إليها من قبل سوى روتين معتاد! والحقيقة

أنها لم تكن معتادة على أداء أى دور دقيق، فكان من الطبيعى أن
يرهف حسها ما تقوم به.

بيد أنه إذا كان شغف أبى بإلزا قد راح يزداد تدريجياً، فإن
آن لم تكن - على ما يبدو - قد لاحظت شيئاً.. ذلك أن أبى كان
أشد حنواً عليها وأسرع تلبية لها، منه فى أى وقت مضى. وكان
ذلك يقلقنى، إذ رددته إلى إحساس لا شعورى بالخطأ! ومع
ذلك فقد كان كل ما يهمنى هو انقضاء الأسابيع الثلاثة الباقية من
الأجارة، حتى نعود إلى باريس قبل أن يحدث شئ ما. وفى باريس
ستبتعد إلزا عن طريقنا، ويستطيع أبى وآن أن يتزوجا فيما لوبقيا
على رأيهما حتى ذلك الوقت: وفى باريس سيكون سيريل لى..
وإذا كانت آن لم تستطع أن تفرق بيننا على الساحل، فهى أعجز من
أن تمنعنى عنه فى باريس! ولقد كانت له فى باريس غرفة خاصة، بعيداً عن
أمه: بت أنجيل نافذتها المفتوحة على سماء باريس الزرقاء الوردية
الرائعة.. وهديل الحمام الهابط فوق إفريزها.. ونحن - سيريل
وأنا - فى الفراش الضيق!

المكشوفة ، التي كانت تحتفظ بها تحقيقا لمقتضيات الدعاية أكثر منه
أشباعاً لذوقها . بيد أنها كانت تشبع ميولى تماماً ، بما يزدحم فيها
من أشياء لاهمة ، وبروعة انزلاقها في سكون ، وتمايلها في المنحنيات .
ثم ميزة أخرى كانت لها : مقعدها الأمامي الذي يتسع لثلاثتنا ، فما كنت
لأستمتع بصداقة إنسان . . . استمتاعى بها وأنا إلى جواره في عربة .
ولقد كنا نجلس ثلاثتنا في المقعد الأمامي وقد تلامست مرافقنا ،
نتقاسم لذة واحدة : الإحساس بالسرعة واندفاع الرياح ، ولربما . .
ميتة واحدة أيضاً ، وكانت آن تجلس إلى عجلة القيادة ، وكأنما ترمز
إلي مركزها المستقبل من العائلة ! ولم أكن قد صعدت إلى عربتها
منذ سهرة كان ، فسرعان ما شرد مني الفكر إلى ما كان . .

وفي بار الشمس التقينا بشارل وبـ صاحب الدعوة - وزوجته .
وكان شارل هذا يشتغل بالدعاية المسرحية ، أما زوجته فلم يكن لها
من عمل سوى بعثرة ما يكسب . . على معارفها من الشبان ، وبسرعة
مربعة ! وهكذا أضحى توفير المال همه الدائم ، ولم يعد يشغله
سوى التفكير في وصل ما بين أول الشهر ونهايته ، فهو دائب الجري
النقود ، دائم القلق . . شديد اللهفة عليها ، بشكل معيب . ولقد
ظل شقيقاً لآزاً زمناً طويلاً ، إذ لم تكن الشراهة من بين عيوبها
أبدأ . . رغم جمالها ! وكان تساهلها في هذا المجال يوافقها تماماً .

ولم تكن آن قد قابلت زوجته الخبيثة من قبل ، فلم يلبث وجهها
الجميل أن امتقع بسمت الاحتقار والسخرية ، تلك البسمة التي تعودت أن
تواجه بها المجتمع . على حين راح وب يتكلم ويتكلم - كهادته - وهو

ومضت أيام ، ثم تلقى أبي دعوة صديق لنا لتناول الشراب في
إحدى بارات سان رافائيل . ولم يتأخر أبي في إبلاغنا الدعوة ،
سعيديا بتلك الفرصة التي تتيح لنا الإفلات قليلاً من حياة العزلة التي
رضيناها . . . على غير ما تعودنا . وأخطرت بدوري كلا من
إزرا وسيريل بأننا سنكون ببار الشمس في الساعة السابعة مساءً ،
وأنهما يستطيعان أن يريانا هناك إذا ما رغبا في الذهاب . ولسوء الحظ
كانت إزرا تعرف صاحب الدعوة ، مما ضاعف ذلك من رغبتها في الذهاب .
وإذ توقعت من وراء ذلك بعض المشاكل ، حاولت أن أردّها عن
عزمها . . دون جدوي ، فقد أجابتنى في بساطة طفولية :

- إن شارل وب يعبدني . ولن يهدأ له بال ، إذا ما رأي ، حتى يحسن
ريمون على العودة إلى .

أما سيريل ، فلم يكن يهمه في الواقع أن يذهب إلى سان رافائيل ،
وكان واضحاً من الطريقة التي ينظر بها إلى أنه لا يبغي سوى
أن يكون على مقربة مني ، ولم يكن في وسعي أن أتحرر مما أثاره
في ذلك من إحساس بالزهو .

وفي الساعة السادسة رحلنا في عربة آن الأمريكية ، الضخمة

يرمق آن بين الحين والحين بنظرات فضولية كان : من الواضح أنه يتساءل عما تفعله مع الفاتك بالنساء ، الشهير ريمون .. وابنته ! وأحسست الغبطة تغمرني ، لفكرة أنه لن يلبث أن يعرف مركزها منا .

وجأة مال أبي إلى ناحيته ، قائلاً دون مقدمات :

- عندي لك بعض الأنباء يا صديقي العجوز ، سنزوج ، آن وأنا ، في الخامس من أكتوبر .

وراح وب ينتقل بنظراته بينهما دهشا ، ففاض بي السرور . على حين بدى الارتباك علي زوجته ، التي لم تستطع أبداً أن تتحرر من ضعفها أمام أبي ! وأخيراً صاح وب :

- تهانئي ! يالها من فكرة عظيمة ! سيدتي العزيزة ، إنك لا تعرفين مدي ما تحققين من نجاح ! إنك لرائعة ! إلينا أيها النذل ! فلا بد وأن نحتفل !

وكانت آن تبسم في سكون وهدوء . وجأة لمحت وجه وب بشرق ، ولم تكن بي من حاجة لأن أستدير قبل أن يصيح :

- إلزا ! يا إلهي ، إنها إلزاما كنبرج ! إنها لم ترني بعد . ريمون ، هل ترى كم أضحت تلك الفتاة جميلة ؟ فتساءل أبي في لهجة المالك السعيد :

- أليس كذلك ؟

غير أنه تنبه إلى نفسه في الحال .. فشحب وجهه . ولم يكن بدم أن تلحظ آن ما في نبراته من معنى ، فاستدارت نحوي في حركة سريعة .

إلا أنني لم أتح لها الفرصة لتقول شيئاً ، فقد ملت ناحيتها أهمس - وكأنما أسر إليها شيئاً - في صوت حرصت على أن يبلغ أسمع أبي :

- آن .. إن لأناقتك ضحايًا ، فهناك رجل لا يستطيع أن يرفع عينيه عنك !

فاستدار أبي في الحال ليمسك بيدها ، ثم يقول وهو يتطلع بحثاً عن الرجل موضع الهمس :

- إنني لا أحتمل شيئاً كهذا .

وفي تلك اللحظة تساءلت زوجة وب :

- أوليسا رقيقين ؟ شارل ، حقاً ما كان ينبغي أن نقلقهما ولعله كان من الأفضل أن ندعو الصغيرة سيسيل ، وحدها .

غير أنني قلت دون أي تردد :

- الصغيرة سيسيل ما كانت لتحضر !

فتساءلت :

- ولم لا ؟ أوتعشقين أحداً من الصيادين ؟

وكانت قد رأتني ذات يوم أبادل الحديث مع تذكري (أتوبيس) ونحن جالسين ، ومن ذلك اليوم وهي تعاملني كمتبذلة .. كواحدة ممن تدعوهم «متبذلات» ! ولم يطل صمتي ، فقد أجبتها وأنا أبذل جهداً لأبدو مريحة :

- لم ، نعم ، بالطبع !

ولكنها عادت تتسائل :

- وهل تصيدين كثيراً؟

وأسوأ ما في الأمر أنها كانت تظن نفسها سريعة الخطاير ذات فكاهة ، وزاد ذلك من غيظي فلم ألبث أن أجبتها :

- لست بخبيرة في الماركيزو* ! ولكنني على أي حال أصيد !

وران الصمت ، حتى قطعه صوت آن مترنا كعادته :

- ريمون ، هل تتكرم فتطلب لي ماصة ؟ إنها ضرورية مع

عصير البرتقال .

ثم لم يلبث شارل وب أن أخذ يلح علينا في حماس ، لنتناول شرابا

ثانيا . واستطعت أن أدرك من طريقة انكباب أبي على كأسه ، أنه

يقاوم رغبته في الانفجار ضاحكا ، على حين كانت آن تنظر الى

متضرعة . وعلى أي حال ، فسرعان ما قررنا أن نتناول العشاء سويا ،

وكأنما لم نؤشك أن نتشاجر !

وأسرفت في الشراب على مائدة العشاء ، فقد كان عليّ أن أنسي

ما كان يشوب ملاح آن من قلق كلما تأملت أبي ، وما كان

يبدو في عينيها من عرفان كلما استقرنا على . ورحلت أعالج مراحات

زوجة وب تقذفني به من عبارات لاذعة ، بابتسامة عريضة . ويبدو

أن سياستي تلك أربكتها قليلا ، إذ لم تلبث أن شرعت تهاجني

بطريقة مكشوفة . وأومأت آن إليّ ترجوني أن أحفظ بهدوني ،

فقد كان أشد ما تخشاه أن تضطر إلى مواجهة فضيحة عامة ، وكانت

زوجة وب مستعدة على ما يبدو لخلق واحدة ! ولكنني كنت معتادة

مثل تلك الفضائح التي لم تكن غير حدث جار في وسطنا ، ومن ثم لم

يكن احتمال حدوثها يقلقني .

* نوع من السمك (اسمري) - هذا والكلمة تعني أيضاً بالفرنسية .. « مأخور » !

وانتقلنا إلى بار آخر ، بعد العشاء .. وسرعان ما وصلت إلزا

يصحبها سيريل . وتلكأت تتحدث إلى المضيفة في صوت عال

قبل أن تدخل إلى الصالة يتبعها سيريل المسكين . ولاحظت أنها

كانت تسيء التصرف ، ولكن سرعان ما تنبهت إلى أن جمالها كفيف

بأن يغطي سوء تصرفها ! ورآها شارل وب فتساءل :

- من هذا الجرو الذي تصحبه ؟ إنه لا يزال صغيراً ، أليس

كذلك ؟

فأجابته زوجته وعلى شفيتها ابتسامة بلهاء :

- إنه الغرام يحفظ عليه شبابه !

وإذ ذاك قال أبي !

- صدقوني . . إنها لا تبادله الغرام ! وإف هو إلا خيال

عابر .

ونظرت إلى آن ، فوجدتها تتطلع إلى إلزا بذلك الهدوء

والاعتماد الذي تتأمل به الشابات من النساء ، و (المانيكان)

اللاتي يعرضن تصميماتها . وانقضت لحظة ، وأنا معجبة بقدرتها

على كتمان إحساسها بالغيرة والحقد . ولكن سرعان ما رحت

أعجب كيف يمكن أن تحس الغيرة ، وهي على هذا الجمال الذي لا يبلغ

منه جمال إلزا شيئاً . ثم لم ألبث ، وقد لعبت الخمر برأسي ، أن

حدثتها بذلك . . فقالت وهي تتأملني في فضول :

- أعتقدين حقاً أنني أشد جمالا من إلزا ؟

وأجبتها :

- بالطبع !
فقلت :

- ذلك لما يلد سماعه . ولـسـكنـك تفرطين في الشراب ، هات
كأسك . ولعله لم يسوءك أن ترى سيريل هنا ، وعلى أى حال فهو
يبدو شديد الضيق !

إلا أنني أجبتها في مرح مستهتر :

- إنه عشيقي !
فقلت :

- لقد ثملت تماما ! ومن حسن الحظ أن وقت الانصراف قد حان .
وشعرت بالخلاص لمفارقة آل وب ، وإن احتجت إلى
كثير من الجهد لأودعهما في أدب . وجلس أبي إلي عجلة القيادة ،
على حين مات برأسى لتستقر على كتف آن . وسرعان ما كنت
أفكر في تفضيلي الشديد لها على كل من اعتدنا رؤيتهم ، وامتنيازها
التام في جميع النواحي . ولم يتكلم أبي كثيراً ، ولعله كان يفكر
في إلزا ! وفجأة سمعته يسأل آن :

- هل هي خائفة ؟

فأجابه آن :

- كطفل بريء ! إنها لم تسم السلوك على وجه العموم .. هل
فعلت ؟ ما كان ينبغي لها بالطبع أن تلقى بتلك الإشارة إلى الماركيرو !
وضحك أبي ، ثم ران الصمت لحظة قبل أن أسمع
بخطابها ثانية :

- آن ، إنني أحبك . أنت وحدك . هل تصدقيني ؟

- لا تكثري من ترديد القول ، فإن ذلك يخيفني !

- هات يدك ..

وإذ ذاك كدت أقفز صائحة :

- لخاطر السماء .. ليس ونحن على طريق السكور !

ولسكنني لم أستطع ، فقد كنت غمورة ، يداعبني النوم . إلى
أن عطر آن كان يدغدع حواسي ، ونسيم البحر يداعب شعري ،
وذلك الخدش الصغير في كتفي يذكرني بمشاركة سيريل إياي ممارسة
الغرام .. وكان ذلك كله كافياً لأن يسعدني ويهدئي . وخطرت
ببالي إلزا ؟ وسيريل .. لا بد وأنهما كانا يقطعان الطريق فوق تلك
الدراجة البخارية ، هدية أم سيريل إليه في عيد ميلاده . وأحسست
بالأسف لهما إلى حد كدت معه أن أبكي ، فقد كانت سيارة آن صالحة
لنوم ، تجري في نعومة .. ولا تتفجر بالضجيج كاللدراجة
البخارية . ثم رحت أفكر في زوجة وب ، وقد حبسها الليل
فاستلقت بقطي : إنني قينة ، إذ ما بلغت عمرها ، أن أدفع .. لمن
يبادلني الغرام ، أروع ما في الوجود .. مهما كلفنا ! إنما المهم ألا
أصبح ممرورة حسوداً ، مثلها إذ تواجه جمال آن وإلزا ! وإذا
بدأت أضحك لنفسي في هدوء ، عدلت آن من وضع كتفها انتهى
لي فيه تجويهاً مريحاً .. ثم قالت امرأة :

- نامي

ونمت ..

و سيقظت صباح اليوم التالي في خير حال ، لا يؤلمنى سوى
توتر خفيف في عضلات عنق . وكانت الشمس تغطي فراشي كهادتها ،
فأزحت الغطاء جانبا وخلعت سترتي ، ثم أسلمت ظهري العاري لأشعتها .
وأسندت خدي إلى ذراعي ثم رحت أتنقل ببصري فيما بين
سطح الغطاء القريب ، وذبابة فوق البلاط حائرة . وكانت الشمس
دقيقة لذيدة ، أحس أشعتها تنفذ خلال جلدي لتأسس عظامي ذاتها ..
وكأنما تبذل عناية خاصة لناعاشي ، فقررت أن أقضى الصباح
هكذا بلا حراك .

و قليلا قليلا ، راحت أحداث الليلة السابقة تتحدد في ذاكرتي .
وسرعان ما تذكرت قولي لأن أن سيريل أصبح عشيقى ، فضحكت :
أبدا لا يصدق سكران ! وتذكرت أيضا ما كان بيني وبين
زوجة وب من مناقرة ، لقد كنت معتادة هذا النوع من النساء : في
مثل عمرها ووسطها ، غالبا ما يكنّ بغيضات بسبب حاجتهن إلى
القرص الكافية لإشباع نزواتهن ! ولقد وجدتتها ، في ظلال
هدوء آن ، أكثر غباء من المعتاد . . . وأشد إثارة للملل . ولقد كان
ذلك أمرا طبيعيا ، فما كان هناك بين صديقات أبى من تستطيع
الصمود طويلا لمقارنة بينها وبين آن . وكان من الضروري للاستمتاع
بمهرات لطيفة مع أناس من هذا النوع ، أن يكون المرء على شيء .

من السكر فيستمتع بالعراك معهم ، أو موصول الود
بأحدهم . ولقد كان الأمر بالنسبة لأبى ، سهلا : كان كلاهما -
هو وب - من صيادى النساء ! يقول وب : « نحن .. من نتعشى
وترقد معى الليلة ؟ إنها الصغيرة مارس ممثلة صوريل . كنت داخلا
منزل ديبوى ، عندما .. » ، فيضحك أبى ويقول وهو يربت على
كتفه : « يالك من رجل سعيد .. إنها لتقارب إلزا جمالا ! » . أحاديث
طلبة .. ومع ذلك كان ما ينفخان فيها من دفء وما يتداولانها فيه من
حماس يعجبني . ولقد كانت هناك أيضا أحاديث لمبارد الحزينة ،
أثناء سهراتنا الطويلة في شرفات المقاهى : « إنها الوحيدة التى أحبتها
ياريمون ! هل تذكر ذلك الربيع ، قبل أن تهجرني ؟ إنه لغباء
أن يكرس الرجل حياته كلها لامرأة واحدة ! » . كان لهذه الأحاديث
المخجلة جانبها البذى ، ولا شك غير أنها كانت تفيض حرارة .. إذ
يتبادلها رجلان يتكاشقان أمام كأس من الخمر .

أما أصدقاء آن ، فما كانوا ليتحدثوا بطبيعة الحال عن
أنفسهم ، إذ لم يكونوا يعرفون مثل تلك المغامرات . وإذا حدث
وقالوا شيئا ، فانهم يفعلون ذلك وابتسامه الحياء تظلل وجوههم ..
ولا شك . والواقع أننى بت أشارك آن تعاليها تجاه
أصدقائنا .. فقد كان موقفا لطيفا يغرى بالتقليد . ومع ذلك ، فاتى
كنت أتخيل نفسى - فى الثلاثين عن عمرى - أكثر شبها بأصدقائنا منى
بأن ! وإذ ذاك ، كان يخنقنى ما تلوذ به من صمت .. وعدم أكثرات ..
وتحفظ . وأتصور نفسى - بعد خمسة عشر عاما - وأنا أميل فى شيء
من الاشتزاز على رجل فاتن يحس بدوره بعض الملل ، لأقول له :

- كان عشيقي الأول يدعى سيرسل .. كنت في الثامنة عشرة ..
وكان الطقس حاراً على الشاطيء ..

ويرتسم في خيالي وجه الرجل .. لا بد وأن تكون فيه تلك
التعابير الدقيقة التي تخطط وجه أبي !

وفجأة طرق الباب ، فارتديت (بيجامتي) على عجل ، وأنا أصبح :
« أدخل » .

ودخلت آن تحمل قدحا في عناية ، وهي تقول :

- لقد فكرت أنك في حاجة إلى شيء من القهوة .. كيف أصبحت ؟
فأجبتها :

- على مايرام .. وإن كنت أخشى أن أكون قد تماميت قليلا
أمس مساء ..

فقلت :

- شأنك في كل مرة تخرجين فيها !

ثم لم تلبث أن استدركت وهي تضحك :

- ولكنني أعترف بأنك كنت مساية ؛ لقد كانت سهرة
طويلة مملة .

ونسيت الشمس ، بل ونسيت قهوتي .. ذلك أن مبادلة آن
الحديث كانت تستغرق دائما كل انتباهي ، فلا أعود أحس
بذاتي . إلى أنها كانت الإنسان الوحيد الذي يستطيع أن يناقش دوافعي ،
ويحملني على إدانة نفسي ؛ لقد كان تليح لي أن أحيا لحظات عميقة ،
واستأنفت آن :

- سيسيل .. أحقا لذلك عشرة هذا النوع من الناس : آل وب
وآل ديوي ؟

فأجبتها :

- إنهم يسيئون السلوك في غالب الأحوال ، ولكنهم ظرفاء ..
فراحت بدورها تراقب خطو الذبابة فوق البلاط . وفي تلك اللحظة ،
خطر ببالي أن الذبابة ولا بد عاجزة ! ولقد كانت أجفان آن طويلة
غزيرة ، فكان من السهل عليها أن تبدى تلعظا . ومضت لحظات ، ثم
عادت تتسائل :

- أو لم تدركي أبدا .. إلى أي حد تكون أحاديثهم المملة
ثقيلة ؟ أولا تضايقك تلك القصص .. عن العقود ، والفتيات ،
والسهرات الحمراء ؟

فأجبت :

- تعرفين أنني قضيت عشر سنوات في دير .. فلا بد أن
يفتنني تحرهم ، وعدم تقيدهم بالأخلاق !

وإن لم أجزؤ أن أقول : إن ذلك يحلو لي أيضا !

فقلت مستنكرة :

- لعامين ؟ إنها ليست مسألة عقل ، على أي حال ، أو خلق .
إنها مسألة إحساس ؛ حاسة سادسة ..

وسلمت بأنني لا أمتلك تلك الحاسة ، فقد كان من الواضح أنني
على نقص في هذه الناحية . وفجأة سألتها :

- آن ، أو تظنني ذكية ؟

فأخذت تضحك ، وقد أدهشتها قسوة سؤالي . ثم لم تنبث أن قالت :

- إنك لكذلك بلا شك ! ولكن لماذا تسألين ؟

فأجبت وأنا أنتهد :

- لو أنني كنت بلهاء .. لما أجبتيني بغير ذلك ! إنك لتثيرين في دائماً ذلك الاحساس بتفوقك علي .

فردت تقول :

- إن هي إلا مسألة عمر .. وإنه ليكون من المؤلم ألا أفوقك قليلاً ثقة بنفسى ، فلقد كنت حريّة - لولا ذلك - أن تسيطر عليّ .

ثم جعلت تضحك ..

بيد أنني قلت في غيظ وضيق :

- ما كان هذا ليكون ، بالضرورة ، أمراً سيئاً !

فأجبت في هدوء :

- بل يكون .. كارثة !

وفجأة ، تخلت عن تلك النعمة المرحّة ، وراحت تتطلع إليّ .. في الوجه مباشرة .. في العينين ، فتحرّكت في مكاني ، وقد بدأت أحس توتراً واضطراباً . وإنني لعاجزة ، حتى الآن ، عن احتمال أولئك الذين يحملقون في وجهي وهم يتحدثون إليّ ، أو يقتربون جداً مني ليتأكدوا من استماعي إليهم . والذي يحدث في مثل تلك الأحوال ، أنني أعجز عن التفكير في غير الهرب .. وأروح أردد

كلمة « نعم » وأنا أضعاف من مناوراتي لأفك بعيداً ، وقد أهاجني إصرارهم وعدم تحفظهم . وإذا كانت آن لا تلجأ - لحسن الحظ - إلى مثل تلك الخطوة ، فقد كانت تثبت عينيها علي وجهي .. حتي ليستحيل عليّ أن أحتفظ بتلك اللهجة الخلية التي كنت أتكلّمها دائماً .

ولم تلبث أن سألتني :

- هل تدري كيف ينتهي الرجال أمثال وب ؟

فأضفت فيما بيني وبين نفسي : « وأمثال أبي ! » ، قبل أن أجيبها في لهجة مريحة :

- في النهر ..

فاستأنفت :

- يأتي وقت ، يفقدون فيه جاذبيتهم .. ولا يعودون « صالحين للعمل .. » كما يقولون ! ويعجزون عن تعاطي الخمر غير أنهم لا يكفون عن الجري وراء النساء ! وإذا ذلك يضطرون إليّ أن يدفعوا غالباً ، وأن يخفضوا من مستوياتهم ، ليتخلصوا من وحدتهم . وإذا ينقلبون عاطفيين سرّيعي الضجر ، يضحون أمثلة مضحكة . لقد رأيت كثيرين يذهبون هذه النهاية .

فقلت في تأثر بالغ :

- المسكين وب !

على حين كنت أفكر في أن ذلك هو المصير الذي ينتظر أبي ، أو هو على الأقل المصير الذي كان ينتظره لولا أن شملته آن برعايتها . وعادت آن تقول ، وعلى شفيتها ابتسامة لا تخلو من إشفاق :

- إنك لم تفكرى في ذلك أبداً ، فأنت قليلة التفكير في المستقبل . أو ليس كذلك ؟ ولكن .. هذا هو امتياز الشباب .
- أرجوك .. لا تلقى بشبابى في وجهي هكذا . إنني لا أستغله إلا نادراً ، وما أظنه يعطينى الحق في كل ما أحججه من امتيازات ومبررات ! غاية الأمر اننى لا أهتم ..

- فبأى شيء تهتمين إذن ؟ أبهدوك وسلامك النفسي ؟ أم بحريتك ؟
و كنت أخشى مثل هذه المناقشات ، خاصة مع آن . فأجبتها :
- بلا شيء . على الإطلاق ! إنك تعرفين أننى أكاد لا أفكر أبداً .

- إنك تقلقينى أحياناً ، أنت وأبوك . إنكما لا تفكران في شيء ، ولا تصلحان لشيء ! وأنتما لا تعرفان . أو يرضيكما حقيقة أن تكونا هكذا ؟

فلم يسعنى إلا أن أجيبها :

- إننى غير راضية عن نفسي . إننى غير معجبة بذاتى ، ولا أحاول أن أفعل . وإنه ليسوءني منك ، ما تضطريننى إليه أحياناً من تعقيد لحياتى .

فجعلت تدندن ، وعلى وجهها سمات تفكير عميق . وتعرفت على الأغنية ، غير أننى لم أستطع أن أتذكرها .. فسألتها :

- ما اسم هذه الأغنية ، يا آن ؟ إنها تثير أعصابى .

فقالت وهى تبتسم ثانية ، ويرسم على وجهها شيء من خيبة الأمل :

- لا أدرى .

ثم أضافت :

- الزمى الفـاش واستريحى ، فسأتابع تحقيقى بشأن ذكاه الأسرة فى مكان آخر !

* * *

وعدت أنفرد بنفسى ، لأفكر كيف أنه سيكون من السهل على أبى أن يجد مخرجاً . وأتخيله وهو يجيب آن : « إننى لا أفكر إلا فى حي لك ! » ، فأقول لنفسى إنها حرية - رغم ما تتمتع به من ذكاه - أن تتقبل ذلك كعذر منطقي ! وفردت جسدى فى وضع مريح ، ثم دفنت رأسى فى الوسادة وعدت إلى التفكير . لقد كانت آن تصبغ الموقف بضبعة درامية . فبعد خمسة وعشرين عاماً سيصبح أبى فى الستين من عمره ، كهلاً لطيفاً يخطه الشيب ، يميل قليلاً إلى احتساء الويسكى واجترار ذكرياته الزاهية .. وآئذ لن يخرج إلامعنى . وإذ يأتى دورى لأحدثه عن مغامراتى ، سيكتفى هو بتزويدي بنصائحى ! وتذهب إلى أننى أستبعد آن من على مسرح مستقبلنا ؛ والواقع أننى لم أكن مستطية أن أتخيلها وقد انسجمت معنا .

لم أكن مستطية أن أتصور ما كانت تحمله معها حينما ذهبت ، كـثمن هدايا : ذلك النظام ، وذلك السلام والهدوء ، وذلك الوئام .. لم أكن مستطية أن أتخيل كل ذلك بين جنات منزلنا بباريس ، حيث تسكن القوضى ذلك المنزل الذى يخلو تارة حتى ليبدو مهجوراً ، ويمتلئ بالزهور ، ودوى الفضايح ، واللهجات العربية

تارات .. أخرى ! لقد كان الضيق والملل أشد ما يفزعني ، وإذا كنت قد أصبحت أقل خشية لتأثيرها ، منذ أحببت سيريل ذلك الحب الواقعي الطبيعي الذي حررتني من كثير من المخاوف ، إلا أنني ما فتئت أخاف الملل والهدوء . لقد كنت أحتاج دائما إلى ما يثيرني - وكذلك كان شأن أبي - حتي يتحقق لي سلاسا نفسيا . ولم تكن آن . مستعدة لأن تسلم بذلك .

لقد تحدثت كثيرا عن آن وعن نفسي ، ولم أتحدث عن أبي إلا قليلا . غير أن ذلك لا يرجع بحال إلى أن دوره في هذه القصة لم يكن أهم الأدوار ، أو أنني لا أسلم بأهميته . والواقع أنني لم أحب أحدا أبدا حبي له ، ومن بين جميع المشاعر التي عرفتها في تلك الفترة .. كان ما أحس نحوه أكثرها استقرارا وأعظمها عمقا ، وأشدها استثارة لاهتمامي . ولقد كنت حرة أن أتحدث عنه في سر وسهولة ، وأنا أعرفه معرفة تامة وأحس نفسي شديدة القرب منه ..

بيد أنني أريد أن أسلط عليه الأضواء أكثر من الآخرين ، لأوضح ما قد يبدو غامضا من سلوكه . والحقيقة أنه لم يكن أحق أو أنا نيا ، غاية الأمر أنه كان محبا للهو والعبث ، تسيطر على تصرفاته رعونة لاعلاج لها . إلا أنني لا أستطيع أن أجرده من المشاعر العميقة أو أن أدمغه بعدم التقدير للمسئولية ، وهو يكن لي ذلك الحب الذي لا يمكن رده إلى عبث ورعونة .. بل ولا يمكن اعتباره مجرد عادة أبوية ؛ لقد كان من الممكن أن يقاسي بسببي أكثر مما قد يقاسيه بسبب أي إنسان آخر ، وأستطيع أن أقرر - من ناحيتي - أنني لم أحس اليأس أبدا إحساسا به يوم أشاح بوجهه عني .. وكأنما يوشك أن يهجرني . وما كان لي قدم على مشاغله العاطفية أبدا ، فكثيرا ما ضحى بما كان وب بدعوه « فرصا عظيمة .. » ليعود بي إلى المنزل .

غير أنه لا يسعى ، على أى حال ، أن أنكر تقلبه وسرعة استسلامه لنزواته والواقع أنه لم يكن ليفكر أبداً ، وإن كان يحاول تفسير كل شيء تفسيراً فسيولوجياً ، يقول إنه التفسير العقلي . . . كأن يقول لى : « ألا يعجبك واقع حالك ؟ ما عليك إلا أن تطيلي من نومك وتقلي من شرابك ! » . وذات الأمر كان يحدث كلما ساورته رغبة عنيفة فى امرأة معينة ، فما كان ليفكر فى منعها أو التسامى بها ؛ كان مادياً ، وإن يكن طيباً مدرّكاً .. رقيقاً .

ولقد كانت رغبته فى إلزا تضايقه ، ولكن بطريقة غريبة .. فما كان يقول لنفسه : « إننى أريد أن أخون آن ، فلا بد وأننى قد أصبحت أقل حبا لها .. » ؛ إنما كان يقول : « هذه الحاجة إلى إلزا تضايقنى ، فلا بد وأن أتخلص منها سريعاً .. أو تتسبب لى فى مشاكل مع آن ! » . على أنه كان يحب آن أيضاً ويعجب بها ، إذ كانت تختلف عن أولئك النسوة النافحات البلهاء وبعض الشئ ، اللاتى عرفهن فى السنوات الأخيرة . لقد كانت تفهمه تماماً ، وتدعم ذكاه وتجربته بما كان لها منهما ، فتشبع خياله وشهواته وحساسيته .. جميعاً .

وإن كنت لا أعتقد أنه كان يدرك عظم اهتمامها به . كان يرى فيها - ولا شك - عشيقة نموذجية .. وأما مثالية لى ، ولسكنى أشك فى أنه كان يفكر فيها كزوجة مثالية .. بكل ما يستتبعه ذلك من التزامات ! وإننى لعلّى يقين من أن كلام آن وسيريل كان يعتبره كما كان يعتبرنى فعلاً . . . شاذاً غريب الأطوار . غير أن عدم تساميه بنهجة فى الحياة ، لم يكن لينمى من أن يجعلها مثيرة ، وأن

يسكب فيها طاقة حيويته .

والواقع أننى لم أفكر فى أبى عندما وضعت خطى لطرده آن من حياتنا ، إذ كنت أعتقد أنه لن يلبث أن يتعزى عنها بغيرها .. كشأنه دائماً ! ولقد قدرت أن انفصلاً سريعاً عنها ، يكون - مع الوقت - أقل أيلاماً له من مقاساة حياة منظمة .. كزوج لها ! فما كان ليخطمه حقيقة .. - ويحطمنى - سوى الخضوع لعادات ثابتة رتيبة ؛ كنا ننتمى إلى جنس واحد ، أقول لنفسي أحياناً إنه جنس نقي جميل ، ثم أعود فأرى فيه - أحياناً أخرى - جنساً بائساً منقرضاً ، من طالبي اللذة !

وفى ذلك الوقت كان أبى يتعذب ، أو هو كان على الأقل مغيظاً : كانت إلزا قد أصبحت رمزاً يمثل لديه الحياة الماضية .. والشباب ، شبابه خاصة . وكنت أحسه يتحرق رغبة فى أن يقول لأن : « عزيزتى ، أستميحك العذر يوماً واحداً .. فمن الضروري أن أثبت - بمعاونة إلزا - من أننى لم أعد بعد كهلاً ، حتى أستعيد هدوئى ! » . ولكنه لم يكن يستطيع ذلك ، لأنها كانت تغار ، أو لأنها كانت أعظم خلقاً من أن تناقش هذه الأمور ، بل لأنها كانت قد قبلت أن تعيش معه طبقاً لهذه الأسس : أن عهد العث والفساد قد انتهى ، وأنه لم يعد طالباً .. بل رجلاً تأتمنه على حياتها . وأن عليه - نتيجة لهذا - أن يحسن السلوك .. لأن يستسلم لنزواته !

وما من أحد ليولم آن ، فقد كانت وجهة نظرها طبيعية ، صحيحة المنطق . بيد أن ذلك لم يكن لينمى أبى من أن يريد إلزا ،

وأن تزداد رغبته فيها شيئا فشيئا حتى تفوق كل رغبة أخرى، وأن يشتهيها ذلك الاشتها المضايف الذي يثيره فينا كل بعيد عنا أو محرم علينا .

وما من شك في أنني كنت قادرة ، في ذلك الوقت ، أن أرتب كل شيء ؛ لم يكن عليّ إلا أن أدفع إلزا لتستجيب له ، ثم أصحب آن إلي نيس أو أي مكان آخر . . بحجة ما . ولا بد وأن نجده ، عند عودتنا ، هادئا مرتاحا ؛ يفيض قلبه بحنان جديد إلى ذلك الحب الشرعي ، أو ما كان حريا أن يصبح شرعيا إثر عودتنا إلى باريس ! وإن لم تكن آن لتحتمل أبداً هذه الفكرة : إنها كانت عشيقة كالأخريات ، إلي حين ! كم عسرت علينا الحياة ، بكبرياتها ومغالاتها في احترام نفسها . .

ولكنني لم أقل شيئا لإلزا ، ولم أطلب إلي آن أن تصحبني إلى نيس . ذلك أنني كنت أريد أن تستشري رغبة أبي في إلزا حتى تدفعه إلى خطأ ما ، فما كنت لأحتمل اشمزاز آن من حياتنا السابقة ، واحتمارها لسعادتنا . غير أنني لم أكن أريد إذلالها ، على أي حال ، وكل ما كنت أبغيه هو إرغامها على قبول نهجنا في الحياة . وكان من الضروري لتحقيق ذلك ، أن تكتشف خيانة أبي ، وأن تنظر إليها نظرة موضوعية فلا ترى فيها جرحا لكرامتها الشخصية . . بل مجرد ضعف طبيعي ، ولئن كانت تريد أن تلتزم الصواب بأي ثمن ، فقد كان من الواجب عليها أن تعترف بحقنا في الخطأ !

وكان عليّ أن أنظاها بتقديس آن وحبها لها ، وينبغي أن أعترف بأنني لم أجد في ذلك مشقة ما ، فقد كنت فزعة حقاً ، تدور بي رهبة غامضة مثارها عدم تقديره لمشاعرها واستعدادها لخياتها .

ومضت عدة أيام سعيدة ، رحت خلالها أستغل كل فرصة لألهب من اهتمام أبي بالزا . وكان وجه آن قد كف عن استثارة ضميري ، بل وكنت أتصور أحيانا أنها لا بد مسلمة بكل شيء . . وأنه سيكون في إمكاننا أن نعيش حياة تلائم كل منا تماما .

و كنت ألتقي بسيريل كثيراً ، لنمارس الغرام سرا ؛ مفتونة بعبير الصنوبر وموسيقى البحر . . ولمسات جسده ! بيد أنه كان يتعذب ، فقد كان يكره ذلك الدور الذي فرضته عليه . وما كان ليستمر في أدائه لولا أنني أقنعت به بأنه لازم وضروي لحماية حبنا . ولقد كان في ذلك - ولا شك - قدرا كبيرا من الخداع ، كما أنه كان من الضروري أن أداري عنه الشيء الكثير ، إلا أن بعض الأكاذيب لم تكن لتكلفني الكثير من الجهد ! وأيا كان الحال ، فقد كنت وحدي سيدة الموقف ، وحكم أعمالي .

ولسوف أعبر تفاصيل هذه الفترة سريعا ، خشية أن تثور بي ذكرياتها الأليمة ، فيالوتنا ملتها عن قرب . ذلك أنني لازلت أحس الانقباض كلما فكرت في ضحكة آن السعيدة ، ولطفها معي . وما زال ضميري يثور بي كلما حدث هذا ، فأضطر إلي التشاغل بعمل ما : إشعال لفاقة ، أو إدارة اسطوانة ، أو الاتصال تليفونيا بصديق . . إلى أن يعلق تفكيري بشيء آخر . بيد أن ذلك الهرب - من ذكرياتي - إلى النسيان والتلهي ، بدلا من مواجهتها ومحاربتها . . لا يرضيني أبدا .

كم هو عجيب أمر القدر ، إنه ليتخذ أحيانا مظاهر غريبة . وفي ذلك الصيف ، كان يتقمص شخصا غير ذي خطر . . . وإن يكن قاتنا : إلزا ! ولقد كانت إلزا ضحكة غريبة : فجائية معدية . . من ذلك النوع الذي لا يملكه غير من به مس من بلاهة .

ولقد تذهبت سريعا إلى تأثير تلك الضحكة على أبي ، فطلبت إلى إلزا أن تستغلها أقصى استغلال كلما « فاجأناها » مع سيريل ! وكانت تعليماني إليها : « عندما تسمعيني مقبلة مع أبي ، لا تقولي شيئا . . فقط ابتسمي ! » . وما كان بد من أن تطفو مظاهر الهياج على وجه أبي ، عندما تصدم أذنيه ذبذبات تلك الضحكة . ولقد كان دوري كديرة مسرح لا يزال مثيرا ، وأبدأ لم يطش سهمي : فما كنا لئرى سيريل وإلزا ، يمثلان اندماجهما الخيالي - غير المستبعد أبدا ! - ، إلا ويشجب وجه أبي . . وكذلك وجهي ! وتعتصر مشاعرنا رغبة في التملك ، أنكى من الألم : لقد كانت صورة سيريل وقد انحني فوق إلزا تفتت قلبي ، والواقع أنني رسمت لها ذلك الوضع دون أن أدرك ماله من تأثير . ولقد كنت حريية أن أضحى أى شيء لأوقف انحناه عنق سيريل الأسمر ، وأحول بينه وبين الاقتراب بوجهه من وجه إلزا المترقب . . فقد كنت أنسى مؤقتا أنني قد دبرت ذلك بنفسى . وفيما عدا تلك الحوادث ، كانت حياتنا اليومية ملائى بثقة آن ، ورقتها . وأكره أن أقول . . وسعادتها ، وإن كانت فعلا

أقرب إلى السعادة منها في أى وقت مضى . . منذ انضمت إلى مجرعتنا الأنانية : كانت لاهية تماما عن رغباتنا العنيفة ، وخططي الدنيئة . ولقد كنت مطمئنة تماما إلى أن عدم اكترائها وكبرياءها الغريزي ، لن يدعاهما تبذل جهدا خاصا للاحتفاظ بأبي : كنت مطمئنة إلى أنها لن تعتمد على غير جمالها وذكاها ، ورقتها . . حتى إنني بدأت أستشعر إشفاقا عليها ! وإنه لإحساس لطيف شعور الشفقة هذا ، مثير للنخوة كموسيقى عسكرية .

وذات صباح جميل ، جمات إلى الخادم - وقد بدا عليها الانفعال - مذكرة من إلزا تقول فيها : « كل شيء على مايرام . تعالى ! » . واستولى على إحساس بأن كارثة على وشك الوقوع ، مبعثه كرهى لخواتيم الأمور . بيد أنني ذهبت لمقابلة إلزا على البلاج ، لنقول لى وعلى وجهها سمات الانتصار :

- منذ ساعة فقط ، كنت أتحدث إلى أليك .

- وماذا قال لك ؟

- أبدى أسفه الشديد لما حدث ، واعترف بأنه قد تصرف كجلف ؛ تلك هي الحقيقة . . أليس كذلك ؟

ورأيت من الأفضل أن أوافقها ، فاستأنفت :

- ثم راح يبيننى المديح بملك الطريقة التى لا يتقنها سواه ؛ إنك لتعرفين . . فى هدوء ونبرات خافتة تكاد تكون همسا ، كأنما هو يتعذب ، تلك النبرات . .

غير أنني قاطعتها :

- وإلام كان يهدف ؟

- حسنا ، لا شيء ! آه ، نعم ، لمد سألتني أن أتناول معه الشاي في القرية ، لأنني لم أعد حاقدة عليه ، وأنني متسامحة تقدمية !

وكان ما يتطلبه أبي في حراوات الشعر، من أن يكن متسامحات تقدميات، شيئاً جديداً يستحق السماع، فابتسمت . ثم كدت أن أجيبها بأن الأمر لا يعني ، لولا أن تنبّهت إلى أنها تعتبرني صاحبة الفضل في نجاح مناوراتها ؛ وأيا كانت حقيقة الأمر ، فقد أزعجني ذلك . ولم ألبث أن أجبتها وأنا أحس نفسي كالمحصرة :

- إنني لا أعرف .. يا إلهي ، فالأمر مرجعه إليك على أي حال . إنك تسأليني دائماً عما ينبغي لك أن تفعل ، وكأنما كنت أنا التي تغريك بـ .. فقط طعني :

- ولكن ، إنما يرجع إليك الفضل في أنه .. واستولى على الفرع فجأة لما في صوتها من نغمة إعجاب ، واندفعت أقول :

- اذهبي إذا شئت ، ولكن ، بحق السماء ، لا تضيفي كلمة أخرى ! فأجابني :
- ولكن ، سيسيل .. أو ليس الهدف أن نخلصه من قبضة تلك المرأة ؟ فانطلقت هاربة ..

وأيا كان الحال ، فقد كنت على موعد مع سيريل ؛ وليفعل أبي ما يريد ، فليسوف تعالج آن الأمر جهد ما تستطيع .. لقد كنت أعتقد أن الغرام هو العلاج الوحيد لما كان يطار دني من قلق .

* * *

وأخذني سيريل بين ذراعيه ، ثم قادني بعيداً دون أن ينبس ببنت شفة ؛ لقد كان كل شيء يبدو لي جواراً سهلاً ، نابضاً بالرغبة واللذة . وعند ما تمددت - في النهاية - إلى جانب جسده الذهبي المتصيب عرقاً ، كنت أحس نفسي مجردة من المشاعر .. ضائعة كغريق . ولم ألبث أن أخبرته بأنني أكره نفسي ، بيد أنني فعلت ذلك وأنا أبتسم ، إذ على الرغم من أنني كنت أعني ما أقول فأنني لم أكن أحس ألماً ، بل مجرد استسلام ممتع . ولكنه لم يأخذ كلامي مأخذ جد ، إذ لم يلبث أن قال :

- لا تهتمي . إنني أحبك حباً عارماً ، وإنني لقادر أن أجعلك تشاركيني إحساسي نحوك !

* * *

ولم أكف عن التفكير في كلماته طوال فترة الغداء .. « إنني أحبك حباً عارماً . » ، ولعل ذلك هو السبب في أنني لا أذكر الكثير مما حدث ونحن جلوس إلى المائدة ، رغم أنني أحاول جهدي . كانت آن ترتدي ثوباً بنفسجياً ؛ بلون الظلال تحب عينيها ؛ بلون عينيها ذاتها . وكان أبي كثير الضحك ، وكان من الواضح أنه راض عن

نفسه كل الرضي، فقد كان كل شيء يسير وفق ما يشتهي . وإذ شرعنا
نتناول الحلوى ، أعلن أنه ذاهب بعد الظهر إلى القرية لشراء بعض
الحاجيات ، فابتسمت فيما بيني وبين نفسي ..

و كنت قد سئمت الأمر كله ، أحس تسليما لما يجري به القدر
ولم تعد بي من رغبة إلا أن أنزل إلى المياه .

* * *

و كانت المياه ناعمة دافئة . ولم تظهر آن ، فافترضت أنها في
غرفتها مشغولة بتصميماتها الجديدة . أما أبي ، فلا بد أنه كان مستغرقا
في اعتصار لحظاته مع إلزا ! وإذ مضت ساعتان ، عدت إلى
(التراس) وقد تعبت من حمام الشمس . وهناك استلقيت في
مقعد ، وتناولت جريدة .

وفي تلك اللحظة أقبلت آن من ناحية الغابة ؛ كانت تجرى في
خطوات ثقيلة مرتبكة ، وقد التصق مرفقاها بجنبها . وجأة استولى
عليّ إحساس فظيع بأن عجوزا على وشك الانهيار ، تجري إلى
ناحيتي بيد أنني لم أتحرك ، ولم تلبث آن أن اتجهت إلى (الجراج) ثم
اختفت وراء (الفيلا) . وفي ومضة من ومضات الحدس أدركت
ما حدث ، فقفزت أجرى وراءها .

وعند ما لحقت بها كانت تجلس في العربة تعالج إدارة المحرك ،
فاندفعت إلى الأمام لأنشبت بباب العربة وأصبح :

- آن .. لا تذهبي . لقد كان كل شيء خطأ مني ! إنه خطأ
أنا ! سأوضح لك كل شيء ..

ولكنها انحنت تفك (الفرامل) دون أن تعيرني التفاتا ، فعدت
أصبح :

- آن .. إننا في حاجة إليك !

وعندئذ انتصبت ، فرأيت وجهها متقلصا ؛ كانت تبكي لأول
مرة أدركت أنني قد آذيت كائنا حيا ذا شعور ، لا مجرد شخصية .
وبدأت أفكر في أنها كانت بدورها يوما ما فتاة صغيرة ذات أسرار ،
ثم راهقت ، ثم أصبحت امرأة . وهامى ، وقد بلغت الأربعين وحيدة ،
تحب رجلا ، ولا شك أنها كانت تأمل أن تعيش معه عشر سنوات
سعيدة .. أوروبما عشرين . ثم .. ثم لقد كان ذلك الوجه البائس
المعذب ، نتيجة تديري وعاقبة خططي !

واستولى عليّ الرعب ، وراح جسدي كله ينتفض وأنا أميل

على باب العربة . ولم تلبث آن أن تمتمت :

- لسنا في حاجة إلي أحد .. لا أنت ولا هو !

ودار المحرك ، فاستولى عليّ اليأس ؛ ما كان ينبغي أن تذهب
هكذا ! وصرخت :

- سامحيني .. أرجوك !

فقال :

- أسامحك ! علام ؟

ثم أضافت والدموع تجري على خديها ، وإن لم يكن يبدو
عليها أنها تحس بها :

- يا طفلي المسكينة !

ورضعت يدها على وجنتي لحظة .. ثم انطلقت العربية . ورأيتها
تختفي حول (الفيلا) ، فاعتصرني إحساس بالآلم . ثم بدأت أفكر
في وجهها من جديد ..

وسمعت وقع خطوات آتية من خلفي ، فتلفت لأرى أبي . كان
قد تأخر قليلا ليزيل آثار أحمر شفاة إلزا من على وجهه ، وينفض
عن ملابسه إبر الصنوبر . وفجأة ألقيت بنفسى عليه وأنا أصبح :
- أنت .. أيها الوحش !

ثم انفجرت أنتحب ..

فراح يهزني وهو يتسائل :

- ولكن ، ما الخبر ؟ أين آن ؟ سيسيل ! تكلمي ! سيسيل !

ولم تجمعني بأبي إلا مائدة العشاء . وكان كلانا قلقا بسبب
وحدتنا الفجائية ، مدركا لضرورة استرجاع آن ؛ ولم تكن بأحدنا
أية رغبة في الطعام . ومن ناحيتي ، كان التفكير في نظرة الفرع
التي شاهدتها تندلع من عيني آن قبل رحيلها ، ومواجهة إحساسى
بالمسؤولية عما أصابها من آلام ، أكثر مما أستطيع احتماله . وكنت
قد نسيت كل ما أعددت من مناورات مأكلة ، وما دبرت من
خطط بارعة ، بعد أن لم يعد هناك ما يهدد بكبح جماحي ..
فيسثيرني ! تستغرقنى سلبية تامة لاتشوبها خشية ملام . وكان
من السهل أن أدرك من ملامح أبي ، أنه يقاسى ذات الأحاسيس .
وفجأة سأل أبى :

- أو تظنينها تهجرنا طويلا ؟

فأجبت :

- لا بد أنها رحلت إلى باريس .

فتعمت في صوت حالم :

- باريس !

وأضفت في كآبة :

- ولربما لم نرها ثانيا !

فأمسك بيدي عبر المائدة وكأنما ليتشجع .. ثم قال :

- لا بد وأنت مستاءة مني أشد الاستياء. إنني لا أعرف ما حدث.
لقد كنت عائداً مع إلزا خلال الغابة و... آه... قبلتها، ولا بد
أن آن أقبلت في تلك اللحظة.

بيد أنني لم أكن أنصت إليه؛ لقد كان احتضانه لإلزا في ظلال
الصنوبر يلوح لي كمنظر مسرحي معتم، لا أستطيع تمييزه. وكان
الشيء الواضح الوحيد من أحداث ذلك اليوم، وضوحاً قاسياً، هو
آخر ما لمحت من وجه آن: تلك السمات الحزينة، وما يظللها من مرارة
الإحساس بالخيانة. وتناولت لفافة من علبة أبي وأشعلتها؛ شيء آخر
لم تكن آن لتطيقه: التدخين أثناء تناول الطعام!

وابتسمت لأبي وأنا أجيبه:

- إنني أدرك تماماً. إنها ليست غلطتك؛ إن هي إلا لحظة
جنون، كما يقولون. إلا أنه من الضروري أن تصفح آن عنا،
أو بتعبير أدق أن تصفح... «عنا»!

فتساءل:

- وما العمل؟

وكان يبدو في أسوأ حال. وأحسست بالرتاء له ولنفسى
أيضاً.. فأيا كان الأمر، ما كان لآن أن تهجرنا هكذا، وتتركنا
للعذاب، لمجرد لحظة ضعف؛ أما كان عليها من واجب نحونا؟
وأجبت أخيراً:

- لنكتب إليها، طالبين صفحها.

فصاح وقد وجد في ذلك مخرجاً من تلك الدمية المثقولة: «نعم، الضمير،
حيث ظللنا ندور لثلاث ساعات:

- أية فكرة رائعة.

وقمنا في الحال، دون أن نتم طعامنا، لرفع غطاء المائدة.
وأحضر أبي مصباحاً وأقلاماً وأوراقاً، ثم... جلسنا وجهاً
لوجه نكاد نبتسم، فقد كانت استعدادتنا تلك توحى بأن عودة
آن أمر محتمل الحدوث.

وإنني لعاجزة عن التخلص من الإحساس بالإشمئزاز والفرع،
وأنا أفكر، اليوم، في ذينك الخطابين المليئين بمشاعر ناعمة، اللذين
سطرناهما ذلك المساء ونحن جالسين تحت المصباح كطالبين صغيرين؛
منكبين - في حيرة صامتة - على ذلك الواجب المستحيل: استرجاع آن!
وأيا كان الحال، فقد عالجنا عمليتين فنيين، مليئين بالأعذار الوجيهة...
والحنان... والندم. وعند ما انتهيت من إعداد رسالتي كنت شبه
وائقة من أنه لن يكون في وسع آن مقاومة طويلاً، وأن
الوفاق والصفو القريب. بل إنني كنت أتخيل المنظر الذي ستمنحنا
خلاله صفحها؛ سيحدث ذلك، ولا بد، في غرفة الاستقبال بمنزلنا
في باريس. ستدخل آن و...

وفي تلك اللحظة دوى رنين جرس التليفون. وكانت الساعة
العاشرة مساءً، فتبادلنا دهشة تحولت سريعاً إلى أمل: إنها آن،
تتصل بنا لتخبرنا أنها صفحت عنا، وأنها في طريقها عائدة إلينا. وقفز
أبي إلى التليفون، ليصيح في صوت يفيض بالغبطة: «هالو».

بيد أنه لم يلبث أن راح يردد: «نعم! أين هذا؟ نعم!»، في
همس متخاذل يكاد لا يسمع. ووقفت بدوري وقد تحرك خوف
مهم داخل نفسي. ورحت أرقب أبي... أو على وجه التحديد يده

التي راحت تمسح على وجهه آلياً . وأخيراً وضع السماع في بطنه ، واستدار إلى قائلاً :

- لقد أصيبك في حادث على طريق إستريل . ولم يكن من الممكن أن يتصلوا بنا قبل أن يكتشفوا عنوانها في باريس ويحصلوا على رقم تليفوننا هنا ، ولقد استغرق ذلك بعض الوقت . ثم انسأف في ذات الصوت الخافت ، دون أن أجرؤ على مقاطعته :

- لقد وقع الحادث في أخطر بقعة من الطريق ! ويبدو أن حوادث كثيرة وقعت في ذات المكان . لقد سقطت العربة من ارتفاع خمسين متراً ، وتكون معجزة لو أنها عاشت .

وإنني لأذكر مانلاً ذلك من أحداث تلك الليلة ، كما يذكر الكابوس : الطريق يتلوى صاعداً تحت أشعة كشافات العربة ، وجه أبي الصامت كصخر ، مدخل المستشفى ..

وما كان أبي ليدعني أراها ، فجلست في عمالة الانتظار أتطلع إلى لوحة حجرية تمثل فنيس ، في نظرات ساذجة . وأخبرتني إحدى الممرضات أن ثمة ست حوادث في ذات المكان ، منذ بداية الصيف ومضى وقت طويل قبل أن يعود أبي ..

وجعلت أفكر ..

حتى في موتها ، أثبتت أن مرة أخرى أنها تختلف عنا ! فما كنا لنستعمل غير الرصاص - بفضل أننا وجدنا الشجاعة الكافية للاقدام على الانتحار ! - ، وما كنا لنقدم على ذلك دون أن نترك أيضاً كافيلاً بأن يقض مضجع من كان السبب ..

على حين قدمت آن لنا تلك الهدية الرائعة إذهيات لنا .. الفرصة لنعتقد الأمر حادثاً : بقعة خطيرة الطريق ، وعربة من .. من السهل أن تفقد توازنها ؛ تلك الهدية التي لن نلبث أن نجد أنفسنا أضعف من أن نرفضها ! وأياً كان الحاولي فإنها لفكرة رومانيسكية أن أدعو الأمر انتحاراً ، فمن ذا الذي يمتحج بسبب أناس مثلي ومثل أبي ؛ أناس ليسوا في حاجة إلى أي إنسان ، حياً أو ميتاً ! ؟ إننا لم نذكر الأمر فيما بيننا أبداً - أبي وأنا - إلا باعتباره حادثاً . وفي اليوم التالي ، عدنا إلى (الفيلا) حوالى الثالثة بعد الظهر . وهناك وجدنا سيريل وإلزا في انتظارنا ، جالسين فوق الدرج ؛ يبدو أن كمثليين هزليين ، أهمل شأنهما في المأساة ؛ لم يكن أيهما قد عرف آن أو أحبها .. ولقد كانا هناك بأقاصيص غرامهما ، وجمالهما المزدوج ؛ وخرجهما . وتقدم سيريل مني ووضع يده فوق ذراعي فنظرت إليه : لم أكن قد أحببته أبداً ! لقد كنت أجده حلواً جذاباً ؛ كنت أحب المتعة التي أناحمها لي ! ولكنني لم أعد بحاجة إليه : كنت راحلة ، مخلفة ورأى تلك (الفيلا) .. وتلك الحديقة .. وذلك الصيف . وكان أبي يتبعني ، فأمسك بذراعي وقادني إلى الداخل .

وفي الداخل كانت سترة آن ، وزهورها ، وغرفتها ، وغيرها ! وأغلق أبي النوافذ ، ثم أخرج زجاجة من التلاجة .. وأحضر قدحين ؛ كان ذلك هو العلاج الوحيد .. في متناول اليد ! وفوق المائدة ، وكان خطائي الاعتذار لا يزالان حيث تركناهما ، فأزحمتما يدي ليسبحا إلى الأرض . وتردد أبي ، وهو عائد بالزجاجة

والقدحين ، ثم لم يلبث أن واصل سيره متجنباً إياها ! ووجدت
ذلك كله رمزاً المعنى ، مجافياً للذوق . . فتناولت قدحى وأفرغته
في جوفى دفعة واحدة .

وكانت الغرفة تسبح في عتمة خفيفة ، فرحت أتأمل خيال أبي
المنعكس على النافذة ، وأنصت إلى وقع طرقات البحر المنتظمة
فوق الشاطئ . . .

وكانت الجنازة في باريس صباح يوم صحو ، احتشد فيه ذلك
الجمع المعتاد من الفضوليين لابسى السواد . وعند ما وقفت إلى جوار أبي
نصافح بعض المسنين من أقارب آن ، رحت أتأملهم باهتمام ؛ كانوا
ولا بد آتين لمشاركتنا الشاي مرة كل عام ! وكانت نظرات الإشفاق
تلاحق أبي ، ولا بد أن شارل وب أذاع مشروع زواجه ! ولحت
سيريل يبحث عني عند انصرافنا ، بيد أنني تجنبته . والواقع أنه لم يكن
هناك على الإطلاق ما يبرر نفوري منه ، غير أنني كنت عاجزة عن
التحرر منه . وإذا كنت لأزال أحس بعض الشك في طبيعة الحادث ،
فقد وجدت شيئاً من السعادة والراحة في عبارات الأسف - لذلك الحادث
المربع - الدائرة من حولنا .

وانطلقت بنا العربة ، فأمسك أبي بيدي . . وأحكم قبضته حولها .
وسرعان ما رحت أفكر : « لم يعد لك غيري ولم يعد لي سواك ، إننا
وحيدان شقيان . . » ، ولم ألبث أن بكيت . . للمرة الأولى . وفرجت
الدموع عني قليلاً ؛ لم تكن تشبه في شيء ذلك الفراغ . . الفراغ المفزع
الذي أحاط بي وأنا أقف في المستشفى أمام لوحة فنيس . وناولني
أبي منديله في صمت ، فرفعت عيني ورأيت وجهه مكفهاً .

وعشنا طوال شهر كامل كأرمل وبقيمة، نفطر ونتغدى... ونتعشى سويا، ونلزم المنزل فلا نغادره أبداً. لا نتحدث عن آن إلا قليلا، لأقول... أو يقول: «هل تذكر يوم أن...» ونحرص على اختيار كلماتنا... ونشيع بعيوننا، خشية أن يجرح أحدنا شعور الآخر، أو يتحرك شيء ما داخل نفسه فيقول ما يتعذر تداركه... وكان لذلك الحياء وتلك الرقة أثرها، إذ سرعان ما أصبحنا قادرين أن نتحدث عنها بطريقة عادية... كعزيز كنا حريين أن نسعد معه لولا أن استرجه الله! وأكتب «الله» بدلا من «المصادفة»، مع أننا لم نكن نؤمن بالله، ولقد كان من حسن الحظ أن نؤمن - في تلك الظروف - بالمصادفة!

و ذات يوم التقيت في منزل صديقة، بابن عم لها... أعجبنى وأعجبت! وانطلقت أصحبه طوال أسبوع كامل، في اندفاع ولهفة... بداية حب! وسرعان ما أخذتني حذوى مع امرأة شابة ذات مطامع، فما كان ليثحمل الوحدة طويلا! ثم بدأت حياتنا تجري مجراها القديم... الختمى!

والآن، ما إن أنفردو أني... حتى نروح نتمازح وننحن تقبائل آخر أنباء انتصارنا! إنه لي شك ولا بد في عذرية علاقتي بفيليب... صاحبي الجديد، كما وأننى أعرف أن صديقتي الجديدة تكلفه الكثير، ولكننا سعيدان..

وإذ يوشك الشتاء أن ينتهى، يبدأ تفكيرنا في الصيف، إننا لن نستأجر ذات (الفيلا) بطبيعة الحال، بل أخرى على مقربة من

جوان ليبين. بيد أنه يحدث أحيانا عند ما آوى إلى فراشي ذات فجر - وقد ران سكون لا تخدش سوى زحجرة العربات في شوارع باريس - أن تثور بي ذكريات أحداث ذلك الصيف... فأروح أعتف في الظلام هائسة: «آن... آن!»، وأكرر النداء طويلا، وإذا ذلك ينشئ في داخلي شيء ما... أستقبله بعينين مغلقتين وأنا أدعوه باسمه: «مرحبا... أيتها الأحرار!»

(تمت)